

ماهر مقلد

الشيخ وحشى

المكتب المصري للمطبوعات



المكتبة العربية للطباعة

الكتاب:

الشيخ وحشى

تأليف : ماهر مقلد

رقم الإيداع : ٢٤٧٩/٢٠٠٧

الترقيم الدولى : 977-407-025-9 : I.S.B.N

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

رئيس مجلس الإدارة
محمد حامد راضى

تصميم : فرمين أحمد ماهر

المنوان والتليفون
٥ ش مصطفى طوم - المنيل -
القاهرة تليفاكس ٣٦٥٥٤٨٧

إهداء
إلى أمي نعمة
رائحة القرية الطيبة

لم تفلح كثير من الكتابات الأدبية فى التعبير بدقة

عن صعيد مصر خصوصاً الشخصية الصعيدية،
وعكست أغلبها مواقف بعيدة كلية عن حقيقة المجتمع
الصعيدى، وعن واقعه، بل بالغت فى رسم صورة نمطية
تظهره على أنه مجتمع من السذَّاج.

ويشعر أبناء الصعيد بمرارة فى الحلق لكون ما يُكتب
عنهم وما يُقِيم عبر الدراما التلفزيونية والسينمائية لا يحمل
أدنى إنصاف للحقيقة المُجرّدة.

والنتيجة بدت بعد كل التجارب السابقة، وبعد عشرات
الأعمال الأدبية التى تزخر بها المكتبات عن الصعيد أن من
الصعب على أى أديب مهما كانت ملكاته ومواهبه أن يرصد
ملامح هذا العالم، طالما لم تتح له فرصة معاشته والتقرُّب
من شخوصه.

ومن هنا تكمن قيمة رواية «الشيخ وحشى» للكاتب
ماهر مقلد التى تدور أحداثها فى الصعيد ولكنها فى الوقت
نفسه امتدت لتشمل المحروسة بأكملها.

هى تجربة أدبية صادقة تُصَوِّر الحياة كاملة فى قرية من
قرى صعيد مصر.. وتُقدِّم تجربة مهمة عن هذا المجتمع
وتفاعلاته والشخوص الفاعلين فيه.

تمتاز هذه الرواية كون كاتبها ينتمى إلى المكان وعاش
سنوات طويلة من عمره فيه، وظل ملتصقاً به رغم الهجرة
والعيش فى العاصمة.

الناشر

لا أحد يفكر فى أى شىء، كل ما كان يشغل بالنا هو المتعة واللهو.

كل يوم نذهب مبكرا إلى قبة الشيخ وحشى ذلك المبنى المهيب الذى تتناثر حوله القصص، ويحفظ الناس حكاياته.. ويروى البعض نوادر كثيرة عنه، وعن بركاته، ويتندر الجميع عن فتوحات هذا الشيخ الذى صعق ثعلبا، وعلقه من طرف ذيله لكونه تورط ودخل بقدميه منطقة الفناء التى تعلوها قبته.

وعندما نسأل: لماذا علق الشيخ الثعلب من ذيله؟

كانت أمي تقول هذا المكان طاهر.. ويجب ألا تدخسه أقدام الحيوانات!

ويبرهن الجميع على صدق هذه الحكاية الشائعة، والتى يعرفها الصغير قبل الكبير فى القرية كلها، بأن العلامة البارزة، والتى تشبه الحفرة، والموجودة فى أعلى نقطة فى بطن القبة من الداخل، ما هى إلا الأثر الباقي، والشاهد على الواقعة التى علق فيها الشيخ الثعلب من طرف ذيله حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ومن

يومها والكل يقسم باسمه .. ويخاف الجميع من غضبه بل ويتمنون رضاه، وأصبح ضريحه مزارا للنساء والرجال والأطفال .. الكل يذهب إليه ويدعو في رحابه الطاهرة طلبا لقضاء الحاجة، ويقصد الشفاعة، ونيل البركة خصوصا النساء اللاتي يتوافدن كل يوم على ضريحه من أجل الحصول على بركته، والبوح له بالأسرار الشخصية التي لا يستطيعن البوح بها إلى غيره، على أمل الشفاء من بعض الأمراض أو إنجاب المولود الذكر المفضل في القرية .. وحتى عجز العريس ليلة الدخلة كانت أم العريس على الفور تذهب وتدعو في ضريحه ليفك الله كرب ابنها.

وعندما فتح الله بالرزق الوفير على المعلم عبده أبو عوض بعد رحلة عمل ناجحة في ليبيا، بعد أن راجت في ذلك الوقت رحلات سفر العمال المصريين إلى هناك عبر منفذ السلوم سعيا وراء فرصة عمل أفضل .. بادر من تلقاء نفسه بعد عودته مباشرة وتكفل ببناء السور الخارجي للضريح، حتى قبل أن يشرع في بناء البيت القديم الذي يعيش فيه هو وكل إخوته ..

وأصبح المعلم عبده قدوة كبيرة لشباب القرية ورجالها .. فالجميع يتمنون السفر إلى ليبيا، لتكرار تجربته الناجحة خصوصا، أنه عاد ومعه سيارة بيجو بيضاء تسع سبعة ركاب كان، يقودها وسط دهشة الجميع وربما حسدهم، لدرجة أن عوض التلميذ في مدرسة الصنایع كان يحلم وهو يقظ بالسفر إلى ليبيا، ويتمنى لو فرت سنوات الدراسة سريعا، وحصل على شهادة الدبلوم حتى يسافر إليها بعد أن أصبحت تمثل كل أحلامه وأمانيه في هذه الدنيا الواسعة.

وبدا كما لو كانت حياته ستنتهى فى التو واللحظة فيما لو
أوصدت أبوابها فى وجهه.

وأكثر من التضرع إلى السماء بالدعاء حتى تتحقق أمنيته
الوحيدة والبعيدة، وكان لا يكف أبداً عن ترديد عبارة - الدنيا لا
تعطى محتاجاً - وهى عبارة كان يخشاها على الدوام، إذ كان
يعتقد أن غاية ما يتمناه هو الرحيل ولا يثق فى أن حظه من الدنيا
سيمنحه هذه الأمنية الغالية.

ضريح الشيخ يقع أمام مسجد القرية مباشرة، والباب
الخلفى يطل عليه و تتوسط فناءه مساحة كبيرة، وهو مفتوح من
جميع الاتجاهات باستثناء الاتجاه الغربى. حيث يلاصق بيوت
عائلة أبو عوض، والتي تزعم أن الشيخ ينتمى إليها، وهو أحد
أبنائها المبرورين المكشوف عنهم الحجاب، بل ويعد واحداً من
المشايع الواصلين أصحاب الكرامات فى عموم بر مصر.

يوم وفاته كان مشهودا وظل حديث الناس وتندروهم لسنين
طويلة..

لم يبرح جثمانه هذا المكان رغم كل المحاولات التى بذلها
المشيوعون من أجل حمله إلى المقابر ولكنه، وهم يحملونه على
الأعناق (تمسمر) فى هذا المكان، ولم تفلح كل المحاولات فى
تحريكه قيد أنملة .

وأمر خطيب المسجد الشيخ (سعد الدين) جموع المشيعين
بالرجوع به إلى الخلف، بعيداً عن هذه المنطقة، اعتقاداً منه أن
الجثمان يرفض السير إلى الأمام لأسباب لا أحد يعرفها، وأن

مجرد العودة به إلى الخلف سينهى المشكلة.. وبالفعل هب جموع المشيعين من الرجال لحمله والعودة به إلى الخلف، تنفيذاً لأمر إمام المسجد. لكن الجثمان لم يتحرك لا إلى الخلف ولا إلى الأمام، وكأن أطنانا من الحديد موضوعة فوق الخشبة المسجى عليها.. ورغم تكاثر الرجال لحمله فإن الكل فشل في تحريكه.. وأصابت الجميع الحيرة وملأتهم الدهشة والخوف ولسان حالهم يقول ما الذي يحدث، جثمان الشيخ لا يتحرك من مكانه ونحن الرجال الأشداء والأقوياء لا نقدر على حمله يا لها من مأساة.. وعندما علا صوتهم خرجت الحشود الحاشدة من النساء والأطفال واكتظ المكان بالكثيرين.. وتصببت الوجوه عرقاً.

وتدخل إمام المسجد ثانية قائلاً: ركوه لحظة ريثما تنتفك العقدة.

وانزوى جانباً وجلس القرفصاء وبدأ قراءة آيات من القرآن بصوت عال، وبعد أن فرغ من القراءة وقبل أن يصدر أى تعليمات جديدة هب الرجال مرة أخرى، وبالفعل أمسكوا بالخشبة الموضوع فوقها ولكن لم يفلحوا في رفعه.

واتجهت نظراتهم صوب إمام المسجد وعقدت المفاجأة الألسنة.

فما كان من الإمام إلا أن قال بصوت رخم وكلمات متدفقة: دعوه لا تكررُوا المحاولة، ويلهجة حاسمة طالب أن يتبعه بعض الرجال الموثوق فيهم إلى داخل المسجد ليتشاوروا في الأمر.

.....
نحن لم نتعرض إلى مثل هذا الموقف من قبل.

عشرات بل آلاف الرجال والنساء والأطفال انتقلوا إلى جوار ربهم ،وجرت عملية الدفن والتشييع بشكل عادى، فلماذا لا نستطيع تحريك جثمان الشيخ المبرور؟

هكذا صرخ أحد الذين ضمهم الاجتماع الطارئ الذى عقده الإمام في المسجد .

هل يخشى الشيخ لقاء ربه ؟ وما الذى فعله فى حياته؟

لم يرق الكلام للإمام وطلب عدم التسرع فى الأحكام، والتوقف فوراً عن ترديد مثل هذه الشائعات والخرافات.

كان الرجل مطالباً أمام الجميع بتقديم تفسير لما يحدث ولما لا وهو الحجة فى كل أمور الدين والدنيا .لكنه لا يملك ولن يملك الإجابة والناس تحتاج إلى من يفسر لها اللغز. وعندما أحس الحضور بالمأزق الذى يمر به الإمام اقترح أحدهم أن يتولى مهمة رفع الجثمان أربعة رجال معروف عنهم الجلد ومن قبل نجحوا فى مهام كثيرة وصعبة.

صمت الإمام ولم يعلق.

وفهم الحاضرون أن مجرد الصمت يعنى الموافقة

خرجت المجموعة من المسجد .كان المشهد مؤثراً وبدأ الإمام يردد: بصوت عال سبحان من له الدوام.. سبحان من له الدوام.. وكل الواقفين يرددون وراءه، شق الرجال الصفوف

الممتدة بصعوبة بالغة والنظرات كلها تحولت نحوهم وبدا عليهم
القلق والخوف من الفشل.

فى لحظات توزعوا حول النعش وانقضوا عليه كما لو كانوا
سيرفوعون جبلاً، وطال الوقت الذى قضوه فى عملية التحكم فى
الإمساك بالخشبة.

هم بالأحرى كانوا يلتقطون الأنفاس قبل المهمة الصعبة.

وبصوت مسموع يحرك الجبال قالوا فى صوت واحد.. يا
قوى.. يا قوى.. لكن قواهم خارت ولم يفلحوا كسابقيهم فى
المهمة.

هنا أدرك كل من كان يقف فى هذه اللحظة أن الأمر ترعاه يد
علياء، ولن يتحرك حثمان الشيخ وحشى من مكانه.

لم تطل حيرة الواقفين ولم تدم حسرتهم على ما هم فيه، حيث
صاح الجميع بصوت عال بعد أن سرت فى الأجساد رعشة
خفيفة «الله أكبر الله أكبر» مبروك يا شيخ، مبروك يا شيخ !

وبعدها جرى أحد الواقفين من تلقاء نفسه إلى بيته القريب من
المكان، وأحضر فأساً كبيرة، ودون تفكير أو مشورة بدأ حفر
القبر فى تلك المنطقة، دون أدنى اعتراض كما لو كان الجميع قد
اتفقوا على ذلك من قبل.. بل بادر كل الواقفين بالمعاونة فى حفر
القبر وإعداده وتم دفن الشيخ..

وتحولت تلك البقعة الصغيرة من القرية إلى مكان له احترامه
عند الجميع.

تطوع المعلم عبده بتجديد السور الخاص بالضريح بعد أن تهدم، وأصبح أنقاضا بفعل الزمن، وبسبب سوء استخدام أطفال القرية للمكان ومن تأثير رش الماء عصر كل يوم في أيام الصيف الحارقة والتي كان يداوم عليها صاحب دكان البقالة قبالة الضريح.

اعتاد سكان القرية منه بعد صلاة العصر مباشرة كل يوم، أن ينادى بأعلى صوت على ابنه حسان كي يحضر له خرطوم المياه، ويبدأ في مده إلى حنفية الماء العمومية بجوار المسجد، ويستمر في رش الشارع والمنطقة الامامية المواجهة للمحل لأكثر من الساعة، والفتيات والنساء ينتظرن بفارغ الصبر لحظة توقفه حتى يتسنى لهن ملء الأواني التي يحملنها فوق رؤوسهن، ناهيك عن تعالى أصوات الأمهات وهن يصرخن بأعلى صوت على بناتهن كي يسرعن بالعودة إلى البيت بالمياه.

دافع المعلم عبده الأول والمهم كان وراء تجديد السور وطلاء جدران الشيخ باللون الأبيض الناصع، من أجل أن يثبت لجميع سكان القرية بطريقة غير مباشرة، أن ضريح الشيخ ومساحة الأرض التي يقع عليها هي ملك لعائلة أبو عوض، وليست لأحد آخر. وحتى يخرس الأفواه التي تهمس بين الحين والحين أن الشيخ من أبناء عائلة أبوعرام، ولايمت بصلة ما إلى عائلة أبو عوض ولنفي ما يشاع من قصص عن جذوره.

كان البعض يردد، بعد كل مشادة كلامية تنشب بين العائلات بسبب لعب العيال فى ساحة الضريح الخارجية، أنه لا ينتمى إلى عائلة أبو عوض، ولا ينتمى إلى أية عائلة من عائلات القرية .. وبالتالي ليس من حق أية عائلة فرض الوصاية على المكان واحتكاره والتهديد فى كل مرة بغلق أبوابه بالضربة والمفتاح، ومنع الناس من الجلوس داخل ضريحه و الأطفال من اللعب. وقصر زيارته كل أسبوع على يوم الجمعة فقط لإثبات الملكية والسيادة ودحض كل الأفكار التى تعتقد غير ذلك .

ويقسم من هم ضد عائلة أبو عوض بأغلظ الأيمان وأشدها أن الشيخ ما هو إلا رجل غريب عن القرية كلها، حل ضيفا عليها فى أحد الأيام وكان ينام فى هذا المكان الذى دفن جثمانه فيه، ويرفض الإفصاح عن البلد الذى جاء منه وظل هذا السر معه حتى وفاته، ولم يفلح أحد فى كشف هويته أو فى التوصل إلى حقيقته، رغم كثرة المحاولات التى بذلت معه و جهود البعض المضنية فى التنقيب وراءه، والنبش فى قصته ولكن حضوره كان لغزا ومات ومعه سره.

وكلما أُلح عليه شيخ البلد فى السؤال لمعرفة هويته ومن أين جاء؟ ومن عائلته؟ وقصته من البداية إلى النهاية .. كانت الجلالة تأخذه والدموع من عينيه تسيل واللعب المنساب من فمه يبلل صدره ويغيب تماما عن الوعى وكأنه دخل فى عالم آخر .وبعدها يبدأ فى ترديد بعض العبارات والجمل غير المفهومة والتى ألفها أهل القرية من كثرة ترديدها، وحفظوها وهم فى واقع الأمر لا يفهمونها وغالبا ما كان يختتم كلامه المبهم بصوت مؤثر وحزين

ويقول: (حي .. حي الله موجود .. يعلم ما فى الوجود ولا يخفى عليه كل ما فى الوجود).

وعندما يسمع شيخ البلد هذه العبارة يسعر بتأنيب الضمير، ويعتقد أنه السبب فى هذه الحالة التى تنتابه و تسيطر عليه، ويحاول قدر جهده إسكاته والاعتذار له ومسح دموعه بالمنديل المقلّم - الذى كان يعتز به.

فى كل مرة يؤكد له أنها المرة الأخيرة التى سيسأله فيها عن أصله وفصله وقصته، ومكررا له أن دافعه هو محاولة معرفة الحقيقة حتى يساعده فى العثور على عائلته يعلم الشمل بينهما، كان جليسه المالث الحاج هارون فى كل مرء يتدخل ويقول: كلنا يا حضرة شيخ البلد أولاد آدم وحواء. ويكمل لا أعرف سببا واحدا يجعلك لا تمل من سؤال الشيخ وحشى عن حكايته.. ويقسم بأغلظ زيمان أن الشيخ هو ابن القرية وكل سكان القرية أهله.

وحتى ينهى شيخ البلد الموضوع يرد قائلا: من فضلك اسكت يا حاج أنا لا أقصد أى شىء.. آخر مرة أفتح فيها الموضوع.

وسرعان ما ينسى أو يتناسى ذلك فى المرة المقبلة وي طرح السؤال نفسه.. ورغم عدم تمكنه من معرفة الحقيقة المحيرة له ولكل السكان فإنه لم يفكر لحظة واحدة فى إبلاغ السلطات الأمنية عنه أو فى إكراهه على الاعتراف بحقيقته بل كان يعطف عليه.. ويستمتع بالجلوس إلى جواره ويستفتيه فى أمور الدين والدنيا.. ويرسل إليه الطعام والشراب، ويهر الأطفال كلما علا

صوتهم أثناء اللعب بجواره على سوء تصرفهم، ويطلب على الدوام من الجميع أن يتركوه مستغرقا في النوم دون إزعاج بعد أن يأوى إلى فراشه وقد فرغ للتو مع المصلين من أداء صلاة الفجر حتى يستيقظ بفعل أشعة الشمس الحارقة التي تشرق على باحة المكان.

وبعد مرور عام أو أكثر على وصوله إلى القرية توفى في المكان ذاته الذي كان ينام فيه، وشاهد بعض الناس عشية وفاته طاقة كبيرة من النور تضيئه ولهذا شرع سكان القرية في بناء الضريح والقبر للشيخ البار.

.....

عائلة أبو عوض كان يؤلمها هذا الكلام أكثر من أى شىء آخر، وفى كل مرة يثار فيها - تؤكد وكلها حنق على الجميع - أنه ابن من أبنائها الواصلين يحب كل الناس وبركاته تطول الجميع ولا تعرف مصدر الحكايات الغريبة التي تدعى أنه رجل غريب حل ضيفا على القرية ومكث بها حتى وافاه الأجل.

وتتعجب من حالة الغيظ التي تبدو على الكثيرين لمجرد أنه ينتمى إليها. وتتمنى لو كانت تحتفظ له بشهادة ميلاد رسمية مدون فيها اسمه بالكامل وعائلته وتضعها في عيون الجميع حتى تخرس مثل هذه الادعاءات وتكمم الأفواه.

وتقول ما الذى يمكن أن نفعله حتى نرضى أهل القرية؟ نتركهم يستمتعون بالجلوس داخل الضريح دون أدنى تدخل.. لا نفرد بجمع البركات التي ترد إلى الشيخ.. نسمح لكل من يقصد المكان بالنوم فيه والمبيت لأيام.

حتى النحاسون الغرباء الذين يزورون القرية كل عام لطلاء الأواني النحاسية، نتركهم يعملون وينامون ويفترشون الفناء ويشعلون النيران التي تستخدم في عملية الطلاء لأيام عديدة دون اعتراض.. والناس مستفيدة، أوانيهم يعاد طلاؤها وأطفالهم يبيعون نوى البلح للنحاسين، لاستخدامه في إشعال النيران.. وبرغم هذا كله لا نسلم من الكلام، والتجريح والسعي المتواصل نحو سلب العائلة مجد انتماء الشيخ إليها.

وكان أكثر ما يغيظ هذه العائلة أن لا أحد يردد مثلاً أن الشيخ عمران وضريحه الكائن في القرية المجاورة، لا ينتمي إلى عائلة عمران ودائماً تقول : لماذا لم يشكك أحد في أحقية عائلة عمران بشيخها ؟ ولماذا لم ينكر أحد انتماء الشيخ غراب إلى عائلة غراب؟

.....

كان يوجد أمام الضريح من ناحية الشرق دكان عفتراًبو خصلة.. ولكنه يتحول بعد الثامنة مساءً إلى مكان للسهر يل هو المكان المفضل لشلة من الرجال لا يزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة.

هذه الشلة معروفة بالاسم تسهر كل ليلة خميس أمام الدكان تدخن وتشرب، وتتسامر بحكايات معظمها نميمة على الآخرين والأخريات.

ودائماً يتحدثون عن تسبب في نشوب مشكلة النار بين عائلتي الغريب والغشيم.

ولكن كان الحديث الأكبر ينصب فى بعض الليالى حول مبروكة تلك الفتاة التى يحلف الكل بجمالها، ويتغزل الجميع فى قوامها الممشوق ويتمناها كل شباب القرية زوجة وحبيبة، ولكن هي على الدوام تبدو غير واضحة المشاعر بل ومستمتعة إلى أقصى حدود الاستمتاع بحالة الإعجاب الجماعي التى تحظى بها من كل شباب القرية دون استثناء.. فهي وإن كانت الأجل بين فتيات القرية إلا أنها تخطت سن العشرين ولم تتزوج وهذه مصيبة كبرى فى القرية، كيف تبقى فتاة من عائلة معروفة وعلى قدر كبير من الجمال والقبول إلى سن العشرين ولا تتزوج حتى الآن؟ فى حين تزوجت «يامنة» الفتاة التى تسكن فى البيت المجاور لها قبل أن تبلغ من العمر سبعة عشر ربيعاً، وتزوجت لطيفة وهى بنت السادسة عشرة، وتزوجت هند فى السن نفسها تقريباً، أما مبروكة الجميلة الحلوة الساحرة فقد بلغت العشرين ولم تتزوج.

بدون شك مفارقة غريبة. ولغز يحتاج إلى تفسير. كيف تمكث مبروكة الفاتنة الرقيقة فى بيت أبيها حتى الآن دون زواج؟

هل سيفوتها قطار الزواج وتصبح عانساً؟ ويذبل جمالها الساحر مثلما تذبل الوردة الجميلة بعد قطفها، لا أحد يمكن أن يصدق هذا الكلام حتى لو بلغت من العمر الأربعين فهى ستظل مرغوبة ومحبوبة وزوجة مطلوبة..

مشكلتها الوحيدة تكمن فى جمالها الصارخ فهى؟ كما يقولون -- تحب جمالها أكثر من الزواج، وكما لو كانت تعتقد أن كل الرجال دونما استثناء لا يستحقون قطف جمالها والتمتع بها،

ومع هذا تجدها تارة تفكر فى السومعي الشاب اليافع صاحب
العمامة البيضاء الكبيرة والشال الأسود المميز، وتارة أخرى
تراها تنظر بإعجاب شديد (للسيد الفس) التلميذ الذى يدرس في
المعلمين وتختلس النظرات لتملأ عينها منه ومن بنطاله الكحلي
وقميصه الأبيض وخصلة الشعر التي سواها جيداً بالمشط.

وبين الحين والحين تسرى في القرية شائعة عنها تقول إنها
وافقت على الزواج من السومعي، وأن والدته زارتها في البيت
وجلست معها، وعندما طلبت يدها لابنها نظرت مبروكة إلى
الأرض، ولم تنطق بكلمة واحدة وفسرت الأم هذا التصرف على
أنه موافقة منها على الزواج منه.. لأن فتاة في مثل شخصيتها
القوية والحاضرة كانت ستعلن بالفم المليان رفضها فيما لو
كانت غير موافقة عليه، ومع هذا لا تتوقف الحكايات في القرية
عمن سيتزوجها؟ خصوصاً شائعة زواجها القريب من ابن عمها
المقيم في القاهرة، وسرعان ما يتم تكذيب هذه القصة، ويفند
البعض عدم صدقها بأن مبروكة مثل (السماك والماء لا يستغنى
أحدهما عن الآخر فلو خرج السمك من الماء فى الحال يموت)
وهى تريد أن تتزوج في القرية حتى تظل على الدوام رقم واحد
في قائمة الجميلات، وهى تعرف أن القاهرة مدينة كبيرة مليئة
بالحسناوات والجميلات فعندما سافرت منذ عامين لزيارة عمها
عادت وكلها غيظ من بنات المدينة ومن تصرفاتهن، وأقسمت
أنها لم تر فتاة جميلة بطبيعتها وكل البنات (غرقانين أحمر
وأصفر).

ومع هذا هي في قرارة نفسها متأكدة من أنها لن تستطيع
مجاراة الكثيرات من فتيات المدينة، مهما كانت مواصفاتها
ومهما راق جمالها الأخاذ للخطاب.. صحيح هي فتاة جميلة ذات
قوام ممشوق ووجه خمري مثل طلعة القمر، وشعر أسود غزير
تندلى جدايله على كتفها حتى تلامس نهديهما الغائرين، وكل من
شاهد ابتسامتها أحس بوخزة في صدره، وبالأصح في قلبه..
وكل من وقع بصره على فتنة عينيها بدا كما لو كان غارقا في
بحور من العشق لا يدرى كيف السبيل إلى النجاة من الفرق
فيها؟

.....

الشلة تتحدث كثيرا عنها، وصاحب الدكان يتمنى أن يزوجها
لشقيقه السومعي، لكنه يخشى من تدخل ابن عمها الذي يفضل
والدهما زوجا لها.

وفي كل مرة كان يثار فيها الموضوع ويحتدم النقاش بين
أفراد الشلة، يحسمه على الفور محمد أبو خطوة حكيم الشلة،
ويقول يا جماعة هو إيه الحكاية؟ (الست) (ست) وعندما ينطفئ
النور لا فرق بين امرأة وأخرى، كل النساء سواء ويكمل حديثه
قائلا: والأهم من كل هذا والخلاصة في الموضوع كلنا عارفينها
وهي منذ متى كانت للبننت في البلد كلمة مسموعة؟

مبروكة لو كان والدها يريد أن يحسم موضوع زواجها وينهى
الحكاية وزوجها فوراً، ستتزوج هي من يوافق عليه هو، وينكسر
رأسها فوق رقبتها، لكن العيب فينا نحن الرجال وفي نظرات

وكلام الإعجاب المنتشر عن الست مبروكة! وفوق كل هذا صنعنا منها حدوتة، وكل يوم نسمع قصة جديدة تخصها وتتعلق بموضوع زواجها، وكأنها بنت العمدة الحويج بجلالة قدره بين وقت وآخر كانت تصدر أصوات مسموعة من جلسة الشلة، وهم يدخنون الحشيش تسمع عبارة (مدد.. مدد.. يا شيخ وحشى)، ثم بعد قليل تسمع صوتا آخر يقول (ندر على يا شيخ لو نلت اللي فى بالى على طول أعمل لك ليلة ذكر كبيرة البلد كلها تحضرها). ثم بعد ذلك تسمع صوتا آخر يقول: (أنت مبروك يا شيخ، وأنا عند وعدى لك بس ربنا يكرم).

أعضاء الشلة يناجون الشيخ حيث يعتقد كل سكان القرية فى كراماته وفى أن شفاعته مضمونة.. حتى السكارى والمساطيل يناجونه ويكثرون من ذكره وهم فى لحظات الانبساط.

ليل هذه الشلة يضاء بواسطة كلوب كبير صاحب المحل يتفنى عصر كل يوم فى تنظيفه، وتجهيزه، وغسله بالماء والصابون من الداخل والخارج بشكل يثير الإعجاب و يدعو للحسد، إذ يعطى نظافته اهتماما يفوق أى اهتمام آخر.

وتكاد تكون هذه البقعة الصغيرة من القرية هى المكان الوحيد المضاء ليلا، ودونها كل المنازل تضاء بواسطة لمبة صغيرة لا تكاد تكفى بالكاد إضاءة حجرة صغيرة.

مساء كل ليلة كنا نلهو بعيدا عن مكان جلسة الشلة، ولكن عند آخر ضوء صادر من شعاع الكلوب. عندها نبدأ اللعب، ونتسلى بحكايات مستغلين الضوء الخافت الذى يصل إلينا.

الحشرات السامة منتشرة بشكل كبير فى القرية، خصوصا العقارب والثعابين، كما لو كانت هى المكان الوحيد الذى زحفت إليه.

كل ليلة نفاجأ بعقرب كبير الحجم وقد لدغ واحدا، ويتم نقله على الفور إلى الوحدة الصحية لعلاج، أو تطوع أحد الرجال واستخدام شفرة حلاقة فى تشريط مكان اللدغة، وشفط السم بينما يتفرغ البعض الآخر للبحث عن العقرب من أجل قتله اعتقادا منهم أن قتل العقرب يحمى المصاب من الموت ويكتب له عمرا جديدا.

لساعات العقارب أكثر من ضربات الشمس فى الحقول. ولا أحد من الأطفال يسلم من لدغاتها.

فى إحدى الليالى كنت ألعب بجوار الشلة، وعلى مسافة تسمع
لنا بتجنب الشخط والطرد المتوقع بدعوى الإزعاج والعكنة.

وبينما نحن منهمكون فى اللعب شعرت بألم كبير يسرى فى
قدمى مثل الماء الساخن، وفجأة وجدتنى أصرخ بصوت عال
ومسموع وأقول: (اتلست)، هذه العبارة كانت تسمع كثيرا
عندما تلدغ العقارب الأطفال أو الشباب أو الشيوخ، الكل يدرك
أن الخطر المحتمل والمتوقع هو لدغة العقرب.

الصرخة أخرجت الشلة من جلسة السلطنة والمزاج.

ورثاب الجميع ينظر نحو مصدر الصوت لم يتبين أحدهم من
الذى صرخ، وبعد برهة أدرك الجميع أن مصدر الصوت قادم من
المكان الذى يلعب فيه الأطفال، وبسرعة كبيرة ميز عنتر أبو
خصلة صوتى أو بالأحرى صراخى، وقال: بلهفة لم أسمعها منه
من قبل مالك يا (ناجح)؟

كنت أتمنى أن أسمع منه هذه الكلمة فى أى وقت آخر، فهو
على الدوام فى نظر كل الأطفال رجل قاس الطباع غليظ القلب
جاف المشاعر، لا يعطف على الصغار مهما كانت الظروف وبذلك
ترك بينه وبيننا مسافة كبيرة وشاسعة، جميعنا يخشاه ولا يحبه
وفى الوقت نفسه لا يرفض له طلبا مهما كان.. ولكن يبدو أن
الكرب الكبير هو الذى حرك طيبة قلبه، فهو وإن كان على الدوام
يبدو متجهم الوجه، ومتحفزا فإنه فى الحقيقة رجل طيب القلب،
ولكنه كما لو كان يخشى أن يضبطه أحد فى وضع وهو متلبس
بصفة الدليبة..

قال بصوت يحمل الخوف مالك حصل لك إيه؟ وتبعه كل أفراد
الشلة.

ورغم أن حادث لدغ العقرب لطفل أو شاب أو حتى امرأة أمر
متكرر وعادى، ولا يثير القلق والخوف الذى ساد المكان، إلى
درجة أن الأطفال الذين كانوا يلعبون معى - وعلى غير العادة -
بدا عليهم الخوف الكبير وشعروا من شدة الألم بحجم الكارثة و
فداحة المصيبة.

بعد أن نطقت بكلمة (اتلست) لم أشعر بشيء آخر ودخلت
فى غيبوبة كاملة، وبعد مرور ساعة تقريبا أو أقل قليلا. أفقت
ووجدت نفسى نائما على سرير فى عنبر مستشفى المركز وسط
عشرات من المرضى.

أمى رافقتنى إلى المستشفى.

لم ترضخ للضغوط التى طلبت منها البقاء فى البيت والانتظار
حتى عودتى وقد تم علاجى، ولم تعر الجملة القاسية التى نطق
بها عنتر أبو خصلة أدنى اهتمام، بل لم تغضب عنها وتجعلها
أزمة عندما قال اعتراضا على رغبتها الشديدة فى الذهاب معى
(الحريم تروح المستشفى تعمل إيه؟).

فهو يرى أن مجرد وجود شقيقى الأكبر وبعض الرجال
المرافقين يكفى جدا، بل ويزيد على الغرض.. ولا داعى للبخة
الحريم ونحيبها..

ولكن أُمى رفضت كل هذا وضربت عرض الحائط بكل ما سمعت، وقالت بالفم المليان: لن أترك ضناى لحظة واحدة.

وفى المستشفى رفضت من جديد أن تتركنى بعد أن أخبر الطبيب شقيقى بأننى لن أبارح المستشفى الليلة، ولا بد من الانتظار والمبيت فيه حتى تستقر حالتى ليوم أو يومين أو حتى ثلاثة أيام.. وأصرت على المبيت الى جوارى حتى الصباح، كانت تعتقد أن الأمر لن يطول عن هذه الليلة وفى الصباح سوف نخرج معا ونعود إلى البيت.. ولكن الواقع كان شيئا آخر فأصابتنى شديدة وتتطلب البقاء لأيام في المستشفى.

.....

لم نذق طعم النوم فى هذه الليلة لا أنا ولا هى حتى بزوغ شمس النهار.

طوال الليل كنت أتململ فى سريرى من شدة الألم ومن شدة العطش.. تارة تجدنى أقلب على جنبى الأيمن وقبل أن يلمس جنبى سطح المرتبة القديمة والمتهاكة التى تغطى السرير أعود سريعا إلى جنبى الأيسر.. وهكذا الحال طوال الليل.

لسوء الحظ الكبير لم يلدغنى عقرب. وإنما لدغتنى (طريشة) وهى فصيلة من فصائل العقرب، ولكنها أكبر فى الحجم بكثير ولها قدرة خارقة على الحركة.. ومن تتمكن منه وتلدغه يفارق على الفور الحياة شكلها أسود أو رمادى مخيف.. الكل توقع أن تكون نهايتى هذه الليلة فكيف أنجو من سم الطريشة ومن لدغتها

القاتلة.. وكما لو كانت أمى تعلم بالمصير المحتوم الذى ينتظرنى وربما فسر البعض لهفتها على مرافقتى إلى المستشفى حتى تكون إلى جوارى فى اللحظات الأخيرة، وربما تكون هذه هى آخر مرة تضمنى فيها إلى صدرها.

حالتى فى نظر من شاهدونى مینوس منها، والبعض ابتلع لسانه ولم يتفوه بكلمة واحدة ولكنه فى قرارة نفسه قال ربنا يلطف به وبأمه.

اللدغة خطيرة وأصحاب الخبرة فى تقدير حجم الضرر كثيرون.

قضيت الليلة الأولى فى المستشفى أصرخ بأعلى صوت من الألم والعطش.. الطبيب المعالج قال: لومرت هذه الليلة على خير يكون الخطر قد ابتعد قليلا والأمل يزيد.

ولكنه حذر بشدة وحزم من شرب الماء، بل أصدر الأوامر القاطعة بمنع الماء عنى كلية طوال هذه الليلة وقال: وأمى تستمع إلى كلماته بخوف ودموع تسيل من عينيها بغزارة (لو شرب ميه فسوف يموت فى الحال).

أمى نطقت زاعقة: بعد الشر عليه، ربنا يشفيه وأكملت (إن شاء الله أنا أموت بدلا منه).

الجسد الذى كان منذ ساعات قليلة يتحرك ويجرى دون توقف، أصبح الآن عبارة عن شىء ممد فوق السرير لا يستطيع النهوض و غير قادر على النوم والاسترخاء، كل هذا يحدث بفعل

لدغة من حشرة وزنها لا يتعدى مئات الجرامات، كنت أعتقد أننى لو مكثت دقيقة واحدة دون جرعة كافية من الماء لفارقت الحياة على الفور.. وبين هذه الأحاسيس والمشاعر قضيت أصعب الساعات فى حياتى.

أمى تكاد تجن من فرط العذاب الذى تشعر به بسببى، وتتوسل كل دقيقة لمرضة العنبر من أجل منحى رشفة ماء واحدة وتقول: نقطة ميه ممنوعة ليه ياربى؟

وتزيد فى التوسل للممرضة كلما زادت حالتى سوءاً، وظهرت على أعراض الهزال وعدم القدرة حتى على مجرد البكاء والكلام.. وتلح فى التوسل وكلها رعب من المصير الذى ينتظرنى : خوف أكبر من الممرضة ومن الطبيب، ولكن مشاعر الأم داخلها كانت أقوى من كل شئ..

لم تهب الطبيب.. ولم تخش رد فعل الممرضة.

الممرضة قاسية جداً ولا تسمع أية كلمة تنطق بها.

هى معذورة.. تنفذ التعليمات وفى العنبر حالات أخرى كثيرة تحتاج إلى الرعاية والاهتمام مثلى بالضبط، ولكن أمى لا تشعر بأى شئ آخر من حولها.

هى تحب بطبيعتها كل الناس وتهتم بهم.. تتعاطف مع المرضى والمحتاجين لكن هى الآن تشاهد بعينها ابنها ناجح والموت يقترب منه والعطش سيقضى عليه. فهل ستفكر فى أحد غيره؟

.....

أمى تترجى الممرضة.. وتقول بس يا دوب نبل له ريقه بشوية
ميه.

الممرضة تنهرها وتقول أنا تعبت وبلاش صداع.
لن تتوقف عن الإلحاح طالما هى تسمع منى كلمة عطشان.
وبعد طول إلحاح يحتى تريح الممرضة أعصابها قالت : أنا
مضطره أبلغ الدكتور علشان يشوف معاك حل.
أدارت الممرضة قرص الهاتف.

كان الطبيب قد خلد إلى النوم فى استراحة المستشفى.
وقالت له: أسفه يا دكتور صحتك من النوم.
والدة ناجح عاوزة تشربه ميه بفارغ الصبر، ورافضه تسمع
الكلام وكل شويه تزن وأنا دخت معاها.
الطبيب: ناجح مين؟

الممرضة اللي اتحجز الليلة.
الطبيب: كان اتحجز بسبب إيه؟
الممرضة: يادكتور اللي أعقرب لدغه.
الطبيب: وأنت عاوزة إيه دلوقتى.
الممرضة: بأقول لحضرتك والدته عاوزة تشربه ميه.
الطبيب: ينهر الممرضة ويقول ميه إيه، (دا طريشة لسعاه)

المرمضة: بس يا دكتور أمه مش ساكنة وعلى طول بترن.
الطبيب: أنا قلت لك يا دوب تبلى شفايفه بالميه بعد أربع
ساغات، ويكره الصبح لما أشوفه أقرر موضوع الشرب.
المرمضة: ممكن يا دكتور نديله مسكن علشان ينام.
الطبيب: جسمه فيه سم إزاي نديله مسكن هوه بعد شويه
هينام من التعب. ونرتاح من زنه ومن صداع أمه.
أمى تستمع إلى المكالمة وكلما تصورت أنها انتهت تبادر
بسؤال الممرضة الدكتور قال ايه؟
والمرمضة لا ترد.

وبعد أن وضعت سماعة التليفون قالت: خلاص يا حاجة
الدكتور سمح نبلل له شفايفه بالميه. المهلة خلصت.
أمى فرحت جدا، ونسيت فى هذه اللحظة كل ما حدث
لى، وكأنها لا تتمنى من هذه الدنيا الآن سوى أن تقدم لى كوبا من
الماء تمسح به ألامى وتغسل به أوجاعى.
واندفعت سريعا نحو حوض المياه البعيد عن العنبر فى آخر
الممر بالطابق الثانى، وملأت كوبا كبيرا من الماء، وجرت نحوى
بسرعة كبيرة، وعندما شاهدت من على بعد كوب الماء كدت أطيّر
من فوق السرير، وأجرى نحوها حتى أختصر المسافة بينى وبين
الماء، رغم أننى فى وضع لا يسمح لى بالحركة، وقلت بصوت
مخنوق ميه ميه.

المرضة شاهدت أمى تقترب منى وفى يدها كوب الماء،
وعلى الفور نادى بأعلى صوت قائلة: من فضلك يا حاجة، أمى
نظرت ناحيتها وكانت الممرضة أسرع منها فى الحركة وخطفته
منها، وسكبت كل ما بداخله، وحافظت فقط على نقطة أو نقطتين
فى قاعه ووضعت الكوب على فمى، وبهفة كبيرة فتحت فمى
وكدت أشفط الكوب إلى داخل جوفى، ولم أشعر بطعم الماء بل
لم أحس بأن الكوب كان داخله ماء وصرخت عطشان. فین المیه؟
أمى قالت للممرضة: لیه كده؟ وبكت. وهى تكرر فین المیه..
معقول نقطة ميه واحدة تروى عطشان.. طب يرضى مين ده
ياربى؟ ومين يوافق عليه؟

فى المستشفى مكثت ثلاثة أيام. عرفت مشاعر الأم الحقيقية.
لم تذوق فيها طعم النوم على مدار الليل والنهار هى مستيقظة
تطمئن على، وتبكى من أجلى وتهون على وتقول: يا ناجح أنا كام
مرة قلت لك بلاش تلعب وراء ضريح الشيخ وحشى، علشان
العقارب هناك كثيرة.

وسرعان ما تتدارك الكلام وتقول بس إنت ذنبك إيه، عيل
وفرحان بالعيد وعاوز يلعب مع أصحابه يروح فین.

وتهذى بصوت واهن أنا خايفة عليك من سم الطريشة، بس
ربنا سلم وقتلوها يا ضناى كانت كبيرة، ومن النوع اللى يموت.

خرجت من المستشفى وطلب الطبيب أن أظل تحت الرعاية
فى البيت لمدة أسبوع، دون حركة مع الاهتمام بنوعيات الطعام.
توافد الأهل والجيران لزيارتى والاطمئنان على.

من بين الزوار جاء (قبيصى) ابن عمى الجندى فى سلاح
المدفعية، وتصادف عوبته فى إجازة يوم خروجى.

أحضر معى ثلاث ثمرات من الفاكهة لم أسمع عنها من قبل،
كان لونها أخضر مائلا للأصفرار وقال لأمى يجب أن ياكل
واحدة من (الكمثرى).

التحق بالجيش وشارك فى حرب ١٩٦٧ وذاق مرارة الهزيمة،
وحفرت الحرب فى ذاكرته أعماقا قاسية ويات يصحو وينام وهو
يستدعى تفاصيل ما حدث ولا يمل أبدا الحديث عنها كما لو كان
يؤرخ لها فى عقول الناس.

بعد أن اطمأن على صحتى وقدم نصائحه على اعتبار أنه
فاهم أكثر من كل سكان القرية، وسأل عن واقعة العقرب، وماذا

فعل الطبيب؟ وذكر كيف يتم التصرف فى الجبهة فى مثل هذه الحالات، فعندما يلدغ أحد الجنود عقرب بسرعة يتم ربط مكان اللدغة بطريقة تضمن عدم سريان السم فى بقية الجسم، وبعد ذلك يتم تشريط اللدغة لتفريغ السم من الجسم، وتنتهى المشكلة تطبيقاً للقاعدة المعروفة (الجيش يقول لك تصرف).

دخل قبيصى كعادته فى موضوع هزيمة ١٩٦٧ التى أدمن الحديث عنها عندما سمع صوت طائرة تحلق فى السماء.

الطائرات الحربية فى هذه الأيام كانت تحلق بكثرة فى السماء، وعندما يسمع أزيزها يرفع عينيه نحوها سريعا مهما كانت المناسبة، وبصرف النظر عن أى شخص موجود فى الجلسة ويقول بعين الخبير، هذه الطائرة من طراز الفانتوم أو الميراج أو سكاي هوك، ويبدأ فى شرح مميزات كل نوع وسرعته والأسلحة الأرضية المضادة لها.

يعتقد أن لديه خبرة كبيرة بأسلحة الجو اكتسبها من سنوات تخصصه فى سلاح المدفعية وحبه الكبير للمدافع.

فى هذه اللحظة بالذات تذكر بداية الهزيمة وقال: بدأت المعركة وحدث ما حدث وبعدها صدرت الأوامر العسكرية بالانسحاب غير المنظم وتحملنا خطأ قرار لم نتوقعه، وترجلت مع بقية المجندين للعودة غرب القناة قضيت فى صحراء سيناء اثنى عشر يوما تائها جائعا دون طعام أو ماء أو حماية.

فى حرب ١٩٦٧ المعروفة بحرب الأيام الستة، كان يخدم فى
الجبهة بالجيش الثالث الميدانى.

يتذكر تلك الأيام بحسرة كبيرة، ويستدعى تفاصيلها
الصغيرة بذاكرة حاضرة وكأنها حدثت بالأمس القريب.

يبدأ الكلام والناس تستمع له، وتتعجب من هول المواقف التى
مر بها ومن قسوة الظروف التى عاشها.

نسى سبب الزيارة، وما الذى جرى لى.. ويبدو أنه اكتشف أن
كل الجالسين لم يستمعوا من قبل لمعاناته، ولقصة انسحابه هو
ووحدته العسكرية من سيناء سيرا على الأقدام، رغم أن الشئ
المؤكد هو أن الكل استمع عشرات المرات منه لهذه التفاصيل،
ولكن المثير فى الأمر أن الجميع بصرف النظر عن حبه أو عدم
حبه له، يتعاطف معه ويستمع إلى حكايته مهما كانت الشواغل،
وينصت إليه حتى لو ظل يتكلم ساعات طويلة، فالحقيقة المعروفة
أن كل السكان كبيرهم وصغيرهم استمعوا للقصة مرات ومرات
عديدة، وحفظوها وحكموا عليها ولكن قبيصى يكاد يكون هو
الشخص الوحيد الذى لا يمل من الحديث عنها، ولا يتردد لحظة
واحدة فى سرد تفاصيلها كاملة كلما سنحت له نصف
فرصة، كما لو كان يريد أن يتعلم الناس الدرس.. ويقول بأعلى
صوت لمن يستمعون له: لم نحارب ولم نتح لنا فرصة دخول
الحرب وما حدث كان خطأ يتحمله الكبار ولا دخل لنا به.

فى حين أن كل سكان القرية لم يحملوه أدنى مسئولية ولم
يوجهوا له أى اتهام.. لكن الهزيمة القاسية والأيام التعسة التى

عاشها والأحلام العريضة التى تبددت جعلته لا يتوقف عن الحديث ولا عن الكلام عن فصول ٦٧ البايخة، وبدأ يحكى من جديد وكان شريط كاسيت تم تشغيله..

فبعد أن فرغ من كوب الشاي، وأشعل سيجارة جديدة من (عقب) السيجارة التى فى يده وكادت تلسعه من شدة صغرها وسحب منها نفسا عميقا وأحكم حبسه داخل جوفه.. وبعد ثوان قليلة قذف بالدخان الذى ملأ فمه فى الحجرة، وبدأت سحابة كثيفة من الدخان فى المكان كما لو كانت طائرة نفاثة قد مرت من الحجرة، وبسرعة كبيرة جدا وضع السيجارة ثانية فى فمه وكأنه فى سباق مع الزمن، وسحب منها نفسا أعمق وبدأت السيجارة على وشك الاشتعال من شدة الشفط، وترك هذه المرة الدخان داخل فمه لثوان قبل أن يسمح له بالخروج، ثم فتح بعد ذلك فمه لبرهة فخرج الدخان سريعا، كما لو كان طيرا محبوسا داخل القفص، وفجأة فتح له باب القفص.

واستأنن أمدى فى تقديم دور ثان من الشاي وبسرعة لم يتوقعها قدمت الشاي.

فقال: دون أن يلتفت ناحيتها، وهو فى منتهى التركيز والتأثر: أيام الانسحاب السوداء كان الواحد منا يدفع نصف عمره مقابل كوب واحد من الشاي..

إننا عشر يوما لم نذق فيها لا طعمه ولم نر لونه.

الانسحاب قرار غبى وغريب.. قائد الكتيبة العقيد صادق كان مفاجئا له، عندما تلقى الأوامر أخبرنا بها.

قلنا له لماذا ننسحب ونحن لم ندخل الحرب بعد؟ وكيف سننسحب؟ فكانت إجابته نفذ التعليمات.

أى تعليمات التى ننفذها وتركنا حفاة عراة جوعى فى الصحراء لأكثر من ١٢ يوما؟

العقيد صادق كان أكثرنا تأثرا، ولكنه بدأ متماسكا فهو حتى هذه اللحظة القائد المسئول عنا، وقال: بلغة امرأة: الكل يستعد للتحرك الآن.

بدأنا تحريك القطع العسكرية والمعدات وتركنا الموقع.

لم تكن هناك خطة للانسحاب موضوعة ولا يحزنون، ومشينا على باب الله، ومر اليوم الأول ونحن نتخبط فى الصحراء لا نعرف وجهة لنا.

التعب حل بنا أول شيء فعلناه هو أننا ألقينا بكل المعدات التى كانت معنا على الأرض بما فى ذلك الأسلحة، واكتفى كل واحد منا بحمل همومه فقط، الطعام والشراب كان شحيحا والعطش بدأ يستبد بنا.

خلع العقيد صادق، والضباط من على أكتافهم النجوم والنسور التى كانت حتى الأمس القريب مصدرا للزهو، والفخار لهم ولغيرهم من قادة القوات المسلحة، وعندما حاولت الاستفسار عن السر وراء خلع القائد رتبته العسكرية، عرفت أن

القوات الاسرائيلية تترقب الضباط المصريين، وتلقى القبض عليهم، بينما تقوم بقتل الجنود نظرا لكثرة أعدادهم وعدم وجود أماكن كافية تستوعبهم.

سرنا في الصحراء دون هدف ودون أن نعرف الطريق، كانت أقدامنا تحركنا ونحن وراءها نسير، وكلما حل التعب بنا توقفنا تحت أى ساتر نجده لنحتمى به ننتظر الظلام الدامس حتى نواصل عملية التراجع والإنسحاب، وكلما شعرنا بالخطر ننام فى أى مكان والسلام، الكميات القليلة من الماء والمعلبات نفدت بعد اليومين الأول والثانى وبقي منها القليل جدا في اليوم الثالث.

خلال الطريق الوعر شاهدنا جثث الجنود والضباط المصريين، ملقاة على الأرض، المناظر مشوهة وغدرا العدو واضح، قابلنا مجموعة من الجنود تمكنوا من الإفلات من قبضة العدو، بعد أن تم تدمير وحدتهم العسكرية بالكامل، نصحونا بتمثيل الموت فيما لو هجمت علينا القوات الإسرائيلية.

كنت أقول لنفسي (نمثل الموت إزاي طب ما احنا أموات بجد).

وكانهم قرأوا الغيب ولم تمر سوى ساعات، وبدأت قوات العدو تقترب منا، وتدهس بالدبابات الأجساد البشرية الحية من الجنود المصريين، كانت الفكرة عند العدو هو قتل أكبر عدد من المصريين، بعد أن ضاقت المعسكرات بالأسرى والمصابين، لم يكن لديهم وقت لأسر المزيد من الجنود المصريين، والبديل هو قتلهم دهسا بجنازير الدبابات، وبالفعل وقعنا فى المحذور ولم

نتمكن من الهروب كنا حوالى مائة جندى وضابط، والبقية ضلوا طريقهم، ربما يكون قتل أو تعرض للأسر، أو لقى حتفه من شدة الجوع والعطش، أو أكلته الذئاب واختفى عنا.

هول الموقف يجعل الإنسان لا يفكر إلا فى نفسه.

لمحنا من على بعد قدوم قوات العدو وهى تقترب منا تفرقنا بسرعة كبيرة ولم نجد من بد سوى ادعاء الموت وتجسيده، تفرقنا سريعا وأصبحنا مجموعات صغيرة.. كنت ضمن مجموعة مكونة من العقيد صادق وسبعة جنود، لسوء الحظ كنت أنام فى المقدمة، هبط الجندى الإسرائيلى من الدبابة وتحدث باللغة العبرية مع زميل له.

العقيد يفهم هذه اللغة وترجم بعد انصرافهم العبارة التى نطق بها الإسرائيلى (مش ضرورى نوسخ الدبابة بنعائهم! وهنجرب).

كانت التجربة هى ضربى أنا بالحذاء الضخم الذى يلبسه فى وجهى بقوة شديدة، لأننى كنت فى مقدمة صف الموتى، لم أتحرك رغم أن الألم كان فوق طاقة الاحتمال والضربة مؤلمة جدا، ولكن الخوف من الموت كان أكبر من الإحساس بالألم، واستموت.. وتخيل جندى العدو أننا أموات وفضل الدوران بالدبابة بعيدا عنا حتى لا يلطخها بدمائنا، كان الموت أهون على النفس من النوم وحذاء الجندى الإسرائيلى الضخم والنجس يضرب وجهى. ولكن ما العمل؟

.....

وبعد رحيل جنود العدو وقفنا لا أدري هل مرت ساعة أو نصف الساعة أو خمس دقائق على المشهد، كل ما أتذكره أن الوقت مر كدهر بطيئاً جداً، ووجع حذاء الجندي النجس يفقدني التوازن، هون البعض على الأمر واطمأن البعض الآخر على وجهي، كانت الدماء قد سالت منه ولكن الظلام لم يمكن جندي العدو من رؤيتها.

منحوني رشفة ماء مكافأة لى على تحملى الضربة، وعدم فضح السر وحتى أستعيد توازنى، وبعد فترة طالت من الصمت والذهول، واصلنا السير حتى عثرنا على قمة جبل، وأسفل هذه القمة قررنا النوم، كان التعب قد استبد بالجميع والإرهاق وصل مداه، والقوة ولت إلى غير رجعة.. ورغم شدة التعب والإرهاق فإن النوم كان كمن يرفض زيارتنا، وهل يزور النوم رجالاً فقدوا كل شيء له قيمة ومعنى فى الحياة، وتجبرهم الظروف على ادعاء الموت حتى يتركهم جندي إسرائيلى جبان، فى حين كانوا بالأمس القريب يتعنون مواجهته للقصاص منه.

وتذكرت الحال قبل الحرب والكلام عن قوة الجيش المصرى، والخطط العسكرية وسمعة المشير ومهابته، ولكن النوم كما يقولون سلطان ومهما كانت الظروف ومهما كان الخطر من يستطيع أن يغلبه، ورحت فى نوم عميق وفجأة استيقظت وكأني نمت دهرًا واكتشفت أن النوم زارنى لمدة لا تزيد على عشر دقائق فقط وأن من حولى لا يزالون مستيقظين يصارعون النوم وهو

يصارعهم.. وعبثا حاولت معاودة النوم ثانية، ولكننى لم أستطع واستسلمت للأمر الواقع، وبدأت أفكر فى مصيرى وما الذى سيحدث؟ وهل سأتمكن من العودة إلى غرب القناة ومقاومة الجوع والعطش والأهم الإفلات من قبضة الجنود الإسرائيليين.

ومرت الليلة سوداء.. ومع قرب الفجر بدأنا فى التسلل سريعا، كان يرافقنا رجل أعرابى تقابلنا معه فى الصحراء تطوع بالسير معنا حتى يرشدنا إلى الطرق الخالية من الألغام ومن خطر الأسر.

خمسة مرت أيام دون طعام أو شراب، المصير المحتوم يبدو أنه قادم لا محالة لا معنى لمقاومة الموت.. فكل الطرق تؤدى إليه واستسلمنا من الداخل وبدأنا ترديد الشهادة وحتى هذه لا نقدر على نطقها.

وبينما نحن نسير فى انتظار قبضة الموت لمحت عن بعد نخلة صغيرة فرحت بل طرت من الفرح، واندفعنا بأقصى سرعة نحوها وعندما وصلنا إليها وجدتها وللأسف ذكرا، لا تثمر.

الكل أصيب بصدمة كبيرة، لكننى لم أياس وفكرت فى الاستفادة منها بآية وسيلة، وتذكرت ما يحدث فى الصعيد عندما نقطع النخلة نجد بداخل قلبها شيئا يؤكل يعرف (بالجمار)، طعمه لذيذ ولونه أبيض وبه ماء، ولحسن الحظ عثرت بجوار النخلة على قطعة من الحديد المسنون تصلح فى مهمة تقطيعها، كانت قوتى أضعف من القيام بهذه المهمة وحدى، فطلبت من بعض زملاى مساعدتى بعد أن شرحت لهم الفكرة. وبدأنا نى

تقطيع النخلة، وبعد مجهود مضمن استخرجت من جوفها الجمار
وقلت : كالآمر الناهى سوف أوزعها بالعدل.. الكمية المستخرجة
تكفى عددا أقل بكثير من عددنا، ولكن فى مثل هذه الحالة يجب
أن تكفى الجميع وبدأت فى توزيع قطع الجمار.

.....

العقيد صادق يجلس بعيدا عنا لم يشاركنا فى عملية قطع
النخلة، لا يزال يشعر من داخله بالفارق بيننا وبينه، ومع حق فهو
القائد الذى كان مجرد ظهوره فى أى مكان بالكثيبة يثير الرعب
فى نفوس كل الجنود والضباط، ولكن الجوع كافر كما يقول
المثل، والفوارق الآن تلاشت، والكل لا يفكر إلا فى النجاة من
الخطر والموت وبينما أنا منهمك فى تقطيع الجمار، وجدت من
يربت على كتفى من الخلف ويقول ممكن قطعة يا دفعة.

لم يذكر اسمى رغم أنه يعرفه جيدا، ولكنه تعامل مع الموقف
بإحساس خاص، ولم يشأ أن ينطق بالاسم ودون أن أشعر منحته
أكبر قطعة.

كنت أحب من قلبى هذا القائد لم أنس له عندما سافر فى
مهمة خارج مصر وقبل السفر قال لى: هل تريد حاجة من بلاد
بره؟ كنت أريد شراء ساعة ماركة (جوفيال) بيضاء اللون
وقلادتها سوداء، شاهدتها معه من قبل وعرفت منه أن شقيقته
المذبة قد أحضرتها له من الخارج.

قلت له والخجل يسيطر على ما فيش داعى يا أفندم.

وبلغة عسكرية أمرة قال: بلاش (مرقعة) وتفضل أطلب يا
عسكري.

قلت له أنا نفسى فى ساعة جوفيال بيضاء..

لحظتها شعرت بالكسوف من أن أوضح له أننى أريد ساعة
مثل ساعته.

فقال: بذكاء زى ساعتي أنا؟

فقلت: ياريت يا أفندم.

كنت قد ادخرت سبعة جنيهات من راتبى عرضتها عليه لكى
ياخذها تحت الحساب

قال: خلى فلوسك معاك يا عسكري بعد العودة نتحاسب.

قلت: له حتى أكسر حدة الموقف: أنا رتبتي عريف يا أفندم
وضحكنا.

وبالفعل سافر، وأحضر معه الساعة وكان كثيرا ما يجلس
معنا بالليل ويدعونا لتناول الطعام معه، ولهذا وجدت نفسى
ضعيفا جدا أمامه، وقطعت له من الجمار أكبر قطعة، وأعطيتها
له، وقال وهو فى غير حالته شكرا.

فقلت له أكيد سيادتك عطشان.

فنظر إلى دون تعليق.

فقلت خذ قلب النخلة وهو الخالى من الجمار، بداخله ميه.

واصلنا الليل بالنهار طوال معركة الانسحاب دون أمل فى
النجاة.

الأعرابى ساعدنا كثيرا فى الفرار من قبضة اليهود، خلال
الانسحاب سقط منا الكثير وصفصف العدد المتبقى على عدد
قليل.. البعض مات من العطش، والبعض الآخر مات من التعب
وهناك من مات من الثعابين.

كنا نشرب من الرمال نبدأ فى حفرها حتى نعثر على رمال
مبللة، ونبدأ فى مصها حتى نحس بعدم العطش.

بعد عذاب كبير وجهد، وأيام نهارها مظلم مثل ليلها اقتربنا،
وشاهدنا شط القناة!

لم نصدق أعيننا، واعتقدنا أن ما نشاهده سرايا ووهما كبيرا،
كنا نشاهد ونحن نسير فى الصحراء والعطش يستبد بنا
شلالات من المياه من على بعد، نفرح ونكاد نظير من الفرحة،
ونسرع فى الاقتراب منها وهى كلما اقتربنا منها تعاندنا وتبتعد
فنسرع نحوها أكثر، وفى النهاية نكتشف أن ما شاهدناه ما هو
إلا وهم، وأن الشلالات ما هى إلا تلال من الرمال، ولهذا اعتقدنا
أن شط القناة مجرد سراي مثل كل ما شاهدناه من من قبل، لم
نصدق أننا اقتربنا منه ولن نصدق إلا عندما نلمس المياه بأيدينا،
بل عندما نرمى بأجسادنا فى القناة، ومع هذا واصلنا السير
نحوه وكانت المفاجأة هى أننا بالفعل وصلنا.

المنظر على الشط مؤلم جثث ملقاة هنا وهناك وأشباح لجنود

خارت قواهم بالكامل، ولم تعد قادرة على فعل أى شىء، ومراكب غارقة تظهر منها ألواح خشبية والذعر فى كل العيون، لم تكن هناك أي استعدادات لنقل القوات التى صدرت لها الأوامر بالانسحاب والذين نجوا من الموت لا توجد قوارب ومراكب لسرعة لنقلهم من شط القناة الشرقى إلى الشط الغربى، الجميع فى حالة ذعر ووجدنا مركب صيد واحدة تسع على أكثر تقدير ٢٠ فردا، ولكن قفز فوقها أكثر من ٣٠٠ جندى وضابط، هم كل من تجمع على الضفة الشرقية من القناة فى هذه اللحظة.

كل هذا العدد داخل القارب خوفا من ملاحقة قوات العدو، ودفع الجميع القارب إلى داخل المياه ، وبعد ثوان غرق القارب بكل من عليه.

يا للهول بعد ١٢ يوما كاملة نصارع الموت، ونهرب من نيران العدو وننجو من الثعابين وتتغلب على الجوع والعطش، ونصل إلى شط القناة، ونرى بأمر أعيننا الشط الآخر الذى طالما حلمنا بالوصول إليه، وبعد كل هذا نغرق فى القناة.

غاص القارب بكل من عليه فى المياه ولم يظهر من تحت الماء سوى عدد قليل جدا والمتبقى غرق.

كنت واحدا من الناجين.. فى الصعيد الكل يجيد فن العوم، وتمكنت من القفز بعيدا عن القارب وفعل الشىء نفسه بعض الجنود والضباط الذين يجيدون العوم مثلى، وغاص البعض الآخر فى قاع القناة مع القارب. وبينما أصارع الموج والغرق اقتربت من جندى بين الحياة والموت دفعتنى المياه نحوه وليتنى

ما شاهدته.. منظره لايزال حتى الآن عالقا فى ذهنى كلما تذكرت
عينيه والخوف من الغرق فيهما أبكى، لمحنى ونظرة الغريق تملأ
عينيه ، كنت أود لو أتمكن من إنقاذه لكن الخطر كان كبيرا
والقدرة قليلة، وسمعته والمياه على وشك أن تكسو رأسه
بالكامل يقول: إلحقنى يا (دفعه) ! وأنا لا أستطيع أن أفعل من
أجله شيئا، وكرر جملة ثانية صدها يرن فى أذنى وقال: خذ كل
ثروتى وانقذنى .. عاوز أشوف ابنتى الوحيدة تانى، أنا وارث
خمسة عشر فدانا وكام.. وقبل أن يكمل الجملة غاص مع الباقيين
فى المياه، وبكى من أجله ومن أجل كل الغارقين.

كنت أبكى على حالى وعلى مصيرى، وبينما أنا أبكى وجدت
جنديا آخر يصرخ إلحقنى، وفى لمح البصر وجدته وقد تشبث
بى وكدنا نغرق معا فصرخت بأعلى صوتى: ارفع يديك عن
رقبتى يا بنى آدم كان الخطر قد اقترب منا، وبالفعل استجاب،
ورفع يديه عن رقبتى، ولكنه وضع أظافره فى ظهري وشعرت بنار
تلسع ظهري، لم أهتم، وقلت له سوف أساعدك بشرط أن تسمع
كلامى بالحرف الواحد.

قال برجاء وتوسل: حاضر.

طلبت منه أن يمسك قدمي وقلت له سوف أنام على ظهري
وأصبح حتى نصل إلى الشط، وبالفعل أمسك قدمي وواصلت
العم بصعوبة بالغة.

بين فترة وأخرى كانت تنزلق يده من قدمي وسرعان ما
يسرع ويمسكها ثانية.

كانت مهمة عبور القناه أصعب من أيام الانسحاب، لاأذكر
كم من الوقت إستغرقتة فى العوم، وكم من المواقف الصعبة
شاهدت؟

وصلنا إلى الشط الآخر وارتميت على الأرض غير قادر على
الحراك، وزميلي إلى جوارى والمياه ملأت بطنه، وبعد فترة
وجدت جنود الشرطة العسكرية فوق رؤوسنا، فرحت وتخيلت أن
المساعدة قد وصلت والمعانة ولت ولكن كانت المفاجأة في
تصرفهم لأنهم وبمنتهى العنف قادونا كالقطيع إلى معسكر قريب
تم تجهيزه لتجميع القوات المصرية المنسحبة.

كان القرار الغبى هو تجميعنا في هذا المعسكر، وبعد ذلك
يتم إرسالنا مباشرة إلى الجبهة لم يهتموا بمتابعة حالتنا
الصحية، لم يقدموا لنا الطعام ولا الشراب ما كان يهمهم هو
القبض علينا وكأننا ارتكبنا جرما كبيرا، وعندما طال الانتظار
ومرت الساعات والجوع ياكل بطوننا.

اندفعنا جميعا دون ترتيب إلى بوابة المعسكر ونحن شبه
عرايا، وكان العدد مهولا وخرجنا بالقوة بعد أن فتحنا الباب
وأزحنا في طريقنا كل شئ يقابلنا، واكتشفنا في المنطقة
الزراعية المجاورة للمعسكر وجود حقل شاسع مزروع كله
بفاكهة البطيخ.. هجمنا عليه كما لو كنا نود أن نعوض عدم
قدرتنا في الهجوم على العدو، وتسابق الجنود وغير الجنود في
الجرى داخل الحقل وبدأنا في قطف البطيخ .

كانت وسيلتنا في فتح البطيخ هى الضرب بكل قوة على البطيخة، بعد أن يكون الواحد منا قد طوى كف يده مثلما يفعل الملاكمون ويرفع يده عاليا وينهال على البطيخة ضربا فتتشقق.. وأكلنا .

وبعد أن امتلأت بطوننا كدنا نصاب بحالة من حالات الإغماء، وعدم القدرة على الحركة ولكن دافع الهروب والفرار كان أقوى من كل شئ وفر كل واحد منا إلى حيث يريد .

وكان القدر لعب لعبته.. قبل الحرب كل واحد منا كان يضع (فى بطنه بطيخة صيفى ومطمئن إلى أن إسرائيل سترمى فى البحر) ولكن الذى حدث عكس هذا الوهم تماما، وركبت قطار السويس المتجه إلى القاهرة، وأنا فى وضع سيئ لا أرتدى سوى سروال أبيض فى شكل شورت، وعندما جاء الكمسرى واقتررب منى وشاهد حالى وهيتتى البائسة ربت على كتفى العارى ، و مرق بعيدا ولمحت دمعة من عينيه فرت فى الحال.

وفى محطة رمسيس نزلت من القطار وأنا فى حالة من الخجل ومن الكسوف، وفى عقلى تدور الأسئلة كيف أهبط من القطار ولا أرتدى سوى لباس لا يستر سوى العورة وبقية جسدى عار تماما ولحيتى طويلة؟

ولكن سرعان ما تذكرت أن ركاب القطار بالكامل فى الوضع نفسه الذى أنا عليه، وتشجعت و ذهبت إلى كشك بيع الملابس العسكرية فى موقف أحمد حلمى الشهير، واشتريت منه أفرول وحذاء كنت أحتفظ بثلاثة جنيهاات فى (أستك السروال) الذى

ألْبسه بللها الماء خلال رحلة عبور القناة إلى الخلف وليس إلى الأمام، فكرة وضع الجنيهاات في هذه المنطقة من اللباس كانت حيلتى وحيلة غيرى من الذين يخشون ضياع نقودهم، وهم في سوق القرية أو في رحلات القطار، ورغم الصعوبة في إدخال الفلوس إلى داخل منطقة الأستك والصعوبة الأكبر في إخراجها فإنها كانت هى الوسيلة الوحيدة التى ضمننت لى الاحتفاظ بهذه الثروة الحقيقية في هذا الكرب الذى أعيشه.

كانت الفلوس مبللة ولكنها بكل تأكيد صالحة للتداول، أخرجتها وأنا في غاية الخجل من الطريقة ومن تكرار محاولة تمريرها من داخل الكسرة الصغيرة المصنوعة خصيصا لإدخال الأستك فقط.. وبعد أن نجحت في المهمة قدمتها للبائع الذى كان يراقب تصرفى.. لكن شهامة البائع أثبت أن يأخذ منى مليما واحدا.

رفض رفضا قاطعا أن يقبل الجنيهاات بل زاد على ذلك وقدم لى كوبا من الشاى وساندوتش طعمية..

حاولت معه بل وأقسمت عليه أن يأخذ الجنيهاات، وقلت له ما قيمتها.. أنا أحتفظ بها لمثل هذا اليوم الذى ما كنت أتمنى أن يأتى أبدا، ولكنه قال سوف تحتاجها في ساعات السفر، الطريق بين القاهرة وسوهاج طويل، وقطعا لن يسلم الأمر من تناول ساندوتش أو شراء كوب شاى من بوفيه القطار، وودعنى وهو في غاية التأثر والحزن وقبل أن أخطو خطوة واحدة من أمامه، جذبنى بقوة وضمنى إلى صدره وانهار في نوبة من البكاء وليته ما فعل..

فهو في هذه اللحظة بالذات جدد كل المواجه على، وبدأت أبكى دون صوت ودموعى لا تتوقف، تذكرت في هذه اللحظة كل المأسى والأحزان وشعرت أننا بلاقيمة ولا تقدير، وأن ما حدث لنا ولبلدنا سببه أننا نعامل مثل العبيد لارأى لهم ولا قيمة.

وركبت قطار الصعيد، واكتشفت أن غيرى مئات من الجنود مروا بالتجربة نفسها وحالتهم النفسية تحت الصفر.. كنا ننظر إلى بعضنا دون أن نتكلم.. يجلس بجوارى العديد من الجنود، ولكن لم أكلّم واحدا منهم ولم يكلمنى واحد منهم.. الذى مر بنا أكبر من الكلام ومن الرغى.. في مثل هذه الحالة الصمت هو البلاغة بعينها.. أى كلام مهما كان لن يصف فداحة ما حدث.. أى حوار مهما طال لن يصل إلى الحقيقة المرة التى أصبحنا عليها . وبعد أن تحرك القطار وربما قبل أن يتحرك ومن شدة التعب ومن قلة النوم لم نشعر بشىء سوى أننا وصلنا إلى محطة سوهاج.

كانت شلة السهر تضم محمد أبو خطوة، وهو رجل ألدغ اللسان يجيد الكلام والسهر ويعرف حكايات كثيرة عن معظم سكان القرية والقرى المجاورة، ويسكن بعيدا عن القرية بمسافة كبيرة فى منطقة كائنة وسط الحقول وعلى حافة البحيرة وكل يوم يقول بالأمس وأنا عائد إلى البيت بعد السهرة، شاهدت مجموعة كبيرة من اللصوص ناحية بيت جمعة وكانوا يقفون على شط البحر، وراء الغاب وعندما لمحونى جلسوا حتى لا أكشفهم وأكملت سيرى، وبعد ذلك أخرجت السلاح من جيبى، ونظرت ناحيتهم وأطلقت عليهم أول طلقة من السلاح .. وكل الجالسين من أفراد الشلة فى نفس واحد يقولون له وبعد ذلك ماذا حدث ؟ فيسترسل فى الكلام ويقول: نزلوا فى مياه البحر بكامل ملابسهم وغاصوا فى أعماقه ثم تركتهم وواصلت السير نحو بيتى.. ولكن ما حدث معى فى الصباح كان غريبا حيث استدعاني البيه ضابط المركز وفتح معى محضر سين وجيم، وكان كل ما يشغل تفكيره من الذى أطلق أعيرة نارية أمس ؟

كنت أعرف أن الخبر بكل تفاصيله وصل ولهذا لم أنكر وقلت له : ربك والحق أنا يا سعادة البية، لأن اللصوص كانوا على وشك الدخول لبيت (جمعة) وسرقة محتوياته والناس نيام.

ويتدخل أحمد أبو النجا من الذى أبلغ البية الضابط بحكاية الحرامية وضرب النار؟

فيرد: ما أنت عارف يا أحمد، الغفير بتاع القرية خاف ربما يكون أصيب أحدهم، فجرى فى الصباح الباكر إلى قسم الشرطة وأبلغ البية الضابط بالواقعة

وماذا فعل معك الضابط ؟

الله . هوها يمممكنى ليه؟ واحد شهم طارد اللصوص وجرى وراء الحرامية يمسكوه.

كان يرافق محمد أبو خطوة على الدوام فى هذه السهرات أحمد أبو النجا، وهو صاحب مركب صيد صغيرة يجوب بها فى البحيرة عصر كل يوم يصطاد السمك، وكثيرا ما ينهب إلى النيل لكى يصطاد هناك بمركب آخر، وكان كبير السن تزوج من فتاة صغيرة ويعتقد أن الأفيون والحشيش سيساعده فى مهمته كرجل، وهو أكثر أفراد الشلة حرصا على السهر وتدخين الحشيش وشرب البيرة، ودائم السعال وتعرفه من صوت سعاله ولكن كانت شخصيته مميزة.

وكان ينضم بين وقت وآخر إلى هذه الشلة عبد الحكيم الطايح، وهو شاب تجاوز الثلاثين ولم يتزوج بعد، وتحوم حوله الحكايات وتربطه الألسن بقصص مع زوجة جميلة متزوجة من رجل ضعيف الشخصية، ومن عائلة فقيرة وكان البعض يقول بالأمس شاهدينا الطايح يخرج من عندها متخفيا قرب الفجر. وقد جرى خلفه الخفير وحاول الإمساك به لكنه سبقه.

ومن دعائم هذه الشلة عنتر أبو خصلة صاحب محل البقالة الشهير أمام الضريح.

سكان القرية لا يرتاحون لسهر هذه الشلة ولا لتصرفاتهم، ولكن لا أحد يعترض مادامت الحياة تسير وكل واحد فى حاله، ومع هذا لا يخلو الأمر من مشادة كلامية، وأحيانا خناقة حامية تنتهى قبل أن تمتد الأيادى وتطول الأجساد ويفرقها الوسطاء.

الأجواء العامة التى تعيشها القرية كئيبة ومحنة، والسبب مشاكل الثأر التى تعانى منها البلدة، خصوصا المشكلة التى نشبت بين عائلتى بيومى وبرعى وراح ضحيتها حتى الآن ثلاثون رجلا من العائلتين، ولا تزال أوزارها مستعرة، وكل يوم يمر يأتى بأخبار مؤسفة للعائلتين، ولكن مزاج هذه الشلة مختلف، كانت الخصومة الثأرية قد نشبت بسبب حماقة كبرى، من رجل يختال على الدوام بالصحة الوافرة التى منحه إياها الخالق، وكان يتعالى بشكل كبير على كل من يسكن معه فى المنطقة، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تهور تيمور فى إحدى المرات، وصبوب فوهة سلاحه فى جسد رجل بسيط يعول أسرة كبيرة وأرداه قتيلا، ومن يومها تحولت المنطقة إلى ساحة خصبة للدماء التى تسيل وبدا مسلسل الثأر بين العائلتين يتسع ويحصد الشباب والشيوخ، ولم تكن بكل أسف هذه الخصومة هى كل ما تعانى منه القرية بل كانت المشكلات الثأرية فى عموم القرية أكثر بكثير من العلاقات التوافقية بين السكان، وبات فى الاعتقاد خصوصا لدى الشباب أن الحياة تستقيم من منطلق فرض الآخر لسلطوته وقوته.

عندما كنا نهرب من محيط الشلة، ونذهب للعب تحت شجرة (اللبخة)، يصطادنا الحاج هارون وهو رجل كبير فى السن شديد الاعتناء بهندامه جرىء فى كلامه إلى أبعد حد، يمسك على الدوام فى يده عصاه وفى الأخرى منشة، وعندما نبدأ لعب الكرة تحت اللبخة، وهى منطقة فسيحة نسبيا، تظلها أوراق الشجرة التى تتوسطها وتبدو فى شكل ميدان صغير جدا، أمام بيت الشيخ عبد السلام شيخ القرية السابق وتربط بين الشارع الرئيسى للقرية، والشارع الذى يقع به بيت الحاج هارون.

كل يوم بعد أن يصلى العصر فى المسجد يأتى ويجلس على مقربة من شجرة اللبخة، مستغلا حجرا كبيرا كان منصوبا بجوار سور أرض الناظر، أو مفترشا حصيرة صغيرة حتى يحمى جلبابه الأبيض من التراب، ويتابع بشغف كبير حركة الشارع والناس تخشاه، وتخشى نظرة عينيه.

دائما يصيح بأعلى صوته: يا ولاد الإيه امشوا من هنا، وعندما نتجاهل كلامه يفز واقفا ويجرى خائفا بالعصا التى كانت تلازمه حتى نترك المكان بالكامل.

كان شهيرا في القرية بصفات عديدة، ولكن الصفة التي يعرفها عنه الجميع هو أنه رجل لا يتردد في قول ما يريد قوله، حتى لو أغضب هذا القول كل القرية، ومع هذا فهو شخصية حاضرة في كل الأحداث والمناسبات،

طوال أيام العزاء يتنقل في السرايق المقام لتلقى العزاء بين المعزين، وعندما يدخل السرايق بعض الغرباء عن القرية، لا أحد غيره يكتشف هويتهم فهو مهوم بهذه الأمور، وناجح في حلها ولديه أسلوب مميز وجريء في ذلك، فعلى الفور تجده (فط) من جلسته، واتجه نحو المعزين الغرباء قائلا:

(شكر الله سعيكم) ثم لا يتردد ثانية في طرح سؤاله الملح والجوهرى وبصوت خافت في أنن كبيرهم، بعد أن يجلس بجواره على الدكة نفسها (مشايخ العرب من فين)؟ ولا يستريح قبل أن يعرف من هؤلاء المعزين. ومن أين أنوا؟ ومن شيخ البلدة التي ينتمون إليها؟ وما أحوالهم؟ وعندما يكتشف هويتهم تجده تذكر بسرعة كبيرة اسم شخصية مرموقة من العائلة نفسها، وحملهم تحياته إلى هذه الشخصية، وبعد انتهاء نهار العزاء حيث العزاء في القرية وفي كل الصعيد الجوانى يقتصر على ساعات النهار، كان أهل المتوفى وجيرانهم يواصلون الجلوس في السرايق ليلا من بعد صلاة العشاء وحتى الساعات الأولى من الصباح وبعض الشباب والرجال ينام في السرايق ومع بزوغ شمس النهار يستيقظ الجميع ويستعدون لإستقبال المعزين الجدد.

المتحدث الرئيسى فى هذه الأمسيات الحاج هارون ولحين موعد نومه، يبدأ الحديث عن المعزين ومن جاء اليوم ومن لم يأت، ومن كان يتقدم القوافل ثم يفند لماذا تقدم صفوف عائلة الحويج الحاج فتح الله.. رغم أنه ليس الأكبر سنا بين أعضاء الوفد.. ثم ينتقل سريعا إلى نقد تصرفات الأطفال وسلوك مكرم الخادم، وكيف تباطأ فى الجرى نحو حمار الحاج فتح الله حتى يأخذه منه، ويربطه فى المكان المخصص لانتظار الحمير. مما أربك الكل لأن المعزين داخل السرايق وقفوا فى استقباله والرجل نزل من فوق حماره ولكن مكرم لم يندفع نحوه ويمسك به، حتى يتقدم الرجل نحو السرايق كما هو معتاد فى مثل هذه الحالات.

ويرفع الحاج هارون صوته عاليا ويقول: ما كان يجب أن يتباطأ مكرم مع شخصية كهذه. وكان من المفروض أن يستقبل المعزين معه من بداية الشارع (أبو سمرة) حسبما هو مخطط ومتفق عليه، ولكنه بكل أسف ترك العزاء وذهب إلى بيته لأن بطنه دائما تأكله قبل الظهر.

كان أبو سمرة يختفى فجأة.. وعندما تسأل عنه تكتشف أنه ذهب إلى بيته لتناول وجبة الغداء، وبعد مرور الساعة يعود إلى السرايق دون أن يفكر ولو للحظة واحدة فى المصيبة التى ارتكبها. هكذا وصفه الحاج هارون.

وبحسرة كبيرة يقول أيضا : الحاج فتح الله الرجل (الكبارة) لم يستقبله أحد فى بداية الشارع، والأكادة إن الشباب فى العائلة أكثر من الهم على القلب. وأنا كنت معترضا بشدة على تكليف

أبوسمرة بهذه المهمة، ولكن الكل قال في نفس واحد: هو يعرف الناس وكويس في الاستقبال، وهو أحسن شخص يعتمد عليه رغم معرفتي حكاية بطنه وحرصه على الجرى إلى البيت، وقت الغدا حتى لو كان البية مأمور المركز جاى بنفسه.

ولا يكتفى بذلك بل يقول غاضبا: العيال الصغيرة ممنوع دخولها السرايق تحت أى وضع.

(دى قلة أدب) - دول كسفونا أمام عمدة (السمارنة)، الراجل دخل السرايق وجد فيه كبشة عيال مترصصة فى الصف الأول، ولو حدث وتكررت تانى الغلطة دى منهم سأضربهم.

وحتى يهون عليه الأمر يتدخل (على الراوى) فى الحوار وهو شاب طيب محبوب من أهل القرية بسبب شهامته مع الجميع، وتطوعه بتقديم العون لكل دون تفرقة أو تردد ويقول: بس والله يا حاج العيال النهارده عملوا حاجات مهمة كثيرة ونفعونا،

فيرد هو نفعوا فى إيه؟ وحاجات إيه يا سى على اللي عملوها؟ ساعدوا مكرم الخدام في كل شىء، أنت عارف يا حاج ناس كثير جات ومكرم كان وحده.

الحاج هارون: بلا خيبة مكرم ده رجل بيتدلج أنا من أول لحظة قلت له يا: مكرم هات بكرة أخوك أو هات ابنك معاك، علشان أنا عارف إن العزا بكرة سيكون مزحوما لأن معظم الناس البعيدة لم تأت بعد، لكن هو لم يسمع الكلام لأن عينه كانت على العزاء هنا

وعينه الثانية على الفرح فى نجع كوم الجورون، وهذا أمر لا يصح
ويجب ألا يتكرر.

ولم يقطع الحوار سوى دخول الأستاذ عبد اللاه مدرس اللغة
العربية، وهو ابن الشيخ السابق للقرية وهو أهل ثقة، الناس تلجأ
إليه فى حل بعض المشكلات كما كان يصلى بالمصلين فى
المسجد ويخطب الجمعة فى بعض الأيام،

وقف جميع الموجودين داخل السراى وقال الحاج هارون:
اتفضل هنا يا أستاذ أنت حضرت فى وقتك بالتمام.. أنا فى
وجودك مش قلت العيال مش لازم تدخل العزا، وتقف بره بعيد،
قلبي كان حاسس وكنت خائف من الذى حصل.
فيرد: خير يا حاج هو حصل حاجة.

حصل حاجات كتير النهارده وأنت فى المدرسة.

أول حاجة كانت مصيبة عمدة (السمارنة) الراجل الغريب
حضر يعزى، ومعه كل أكابر السمارنة، ولما دخل وجد العيال
قاعدين - الله يكسفهم - فى الصف الأول، ومش واقفين ولا
واخدين بالهم، ولولا وجودى فى نفس اللحظة على طول نظرت لهم
من تحت لفوق، وأنا مش قادر أتكلم ولا عارف أنطق، ومع ذلك
ظلوا فى أماكنهم ودون أن يشعروا أحد اقتربت من الولد (السمج)
حسونة ولكمته وسحبته وبعدها خرجوا فى سرعة البرق من
المكان.

هل يرضيك هذا التصرف يا أستاذ؟

وحتى يطيب خاطره قال له: الحمد لله أنت كنت حاضر وتداركت الموضوع والبركة فيك.

فيرد: بركة إيه يا أستاذ أنا كنت فى قمة الخجل.. لما العمدة يكتشف طابور عيال مترصص فى الصف الأول يقول علينا إيه.

الأستاذ عبد اللاه: مش ها يقول حاجة هو عارف أن العزا واجب، والعيال برضه نفسها تعمل الواجب زى الكبار.

الحاج هارون: ما تعمل بس بعيد عن المقدمة والصفوف الأولى علشان المنظر العام يبقى محترم.

الأستاذ عبد اللاه: موجهها كلامه لعل الراوى: كنت فين لما العيال دخلوا وقعدوا فى الصف الأول؟

على: كنت موجودا منذ الصباح بس الشيخ القارئ طلب منى إحضار وجبة الغداء بعد صلاة الظهر مباشرة وقال: لى بكل حزم بعد الصلاة الغداء يكون جاهزا، أنا منذ الصباح الباكر لم أتوقف عن القراءة والإفطار فى البيت كان خفيفا وطلب أن يأكل فى الغداء حمام محشى بالفريك ولحمة ضانى، فذهبت إلى البيت من أجل ذلك وبعد عودتى وجدت العمدة وصل.

حمام محشى بالفريك ولحمة ضانى هو إحنا فى فرح يا جماعة ولا فى ميتم .. هكذا قال الأستاذ عبد اللاه.

على الراوى: أنت عارف يا أستاذ الشيخ طلب إيه كمان.. اشترط زوج حمام مش فردة واحدة. والشاى ما يعملوش الخادم ويكون من البيت بالنعناع الأخضر.

الحاج هارون: والله الحريم فى البيوت من الحزن ما ليها
نفس تعمل حاجة خالص. لكن نقول إيه فى الشيخ اللي نفسه
مفتوحة على الآخر وعاوز حمام وشاي بالنعناع فى الميتم.

وحتى لا ينسى الجميع شكواه عاد إلى الموضوع وقال: يا
أستاذ اللي حصل النهاردة عيب قوى.

الأستاذ: بسيطة والمسألة غير مقصودة وأنا عاوز أقول،
وقبل أن ينهى الكلام قال له: اتفضل قول يا أستاذ.

العيال بتوعنا والله فى منتهى الأدب والطيبة، ويسمعوا الكلام
وعارفين الواجب والأصول،

الحاج هارون: أنا مختلف معاك ولا أنت نسيت يوم وفاة
المرحومة، تصرفاتهم وقت العشا كان شكلها إيه.

كان الحاج هارون يعترض بشدة كبيرة، على تصرفات
وسلوكميات الأطفال فى الأكل وقت العشاء خصوصا فى السراشق
ويقول: العيال لم تنتظر الانتهاء من صلاة المغرب كما لم تنتظر
إلى حين بدء المقرئ فى تناول طعامه.. وهجموا على الموائد بشكل
يؤكد أن هؤلاء الأولاد لم يروا من قبل الطعام وكان الشكل محرجا.

كان التقليد المتبع هو أن تشارك كل عائلة من أقارب المتوفى
فى تقديم العشاء فى السراشق بعد صلاة المغرب، وكل بيت
يجوز وجبة من الطعام ويحملها رب البيت ويذهب بها إلى مكان
السراشق. والأطفال ينتظرون بفارغ الصبر هذا الموعد حتى
يأكلوا اللحم.

ومن أجل أن ينهى الأستاذ غضب الحاج قال: أنا بقى هنا
عندى فلسفة مختلفة يا حاج.. الأكل فى «العزا» صدقة على روح
الميت، والعيال لما تاكل ثوابهم كبير عند ربنا.. مين عارف فينا
الصدقة على روح المرحوم تيجى من فين!

وعندما وجد أن الكلام لم يرق له حاول تخفيف الأمر
واستطرد قائلاً: بس لازم الموضوع يترتب، والعيال كلها تقعد
وتاكل فى هدوء.

وصمت الحاج ولم ينطق وأدرك الأستاذ أنه غير سعيد
بالكلام، فحاول تغيير دفة الحوار بطريقة ذكية وقال: أنت عارف
أنا لما كنت طالباً فى جامعة الأزهر أثناء دراستي فى كلية أصول
الدين كنت أقيم فى منطقة قريبة جداً من حي السيدة زينب.

فينط الحاج هارون ويعتدل فى جلسته، بعد أن كان قد فرد
ساقيه على الدكة واسترخى تماماً ويقول بصوت عال ومسموع:
مدد يا أم هاشم.. مدد يا طاهرة.

ويكمل الأستاذ عبد اللاه: فى العزا هناك ممنوع الأكل،
والمناسبة يدوب ليلة واحدة فى الجامع، أو فى سرادق يتم نصبه
فى الشارع والقارئ يقرأ ربعين، أو ثلاثة أرباع من القرآن
الكريم، وتنتهى الليلة وكل حى يروح لحاله، لكن العادات عندنا
هنا فى الصعيد أحسن والناس فاهمة الأصول والواجب.

ووسط الحديث الدائر يدخل (الشعبونى) وهو رجل تجاوز
الأربعين من العمر يعمل، فى الإسكندرية وحضر خصيصاً

لتقديم واجب العزاء واكتسب من طول فترة إقامته في مدينة الإسكندرية بعض الكلمات الإسكندرانية التي يرددها بعفوية تارة، ويقصد منه تارة أخرى، وعلى الفور قال: سلامو عليكم

فرد الجميع عليه وعليكم السلام

الحاج هارون: فيك بركة كبيرة يا شعبونى. انت ابن أصول. الله يرحم الأموات.

فيرد: البركة فيك يا حاج.

والله ما كان لازم تعطل مصالحك وتيجى، إخوانك هنا فيهم بركة كبيرة وعاملين الواجب وأكثر.

عطلة إيه يا حاج ما أنت عارف المرحوم كان غالى علينا، والمرسى أبو العباس ساعة ما سمعت الخبر المشنوم على طول ذهبت لمحطة الرمل، وركبت أول قطار على الصعيد وكان نفسى يا حاج أحضر الدفنة بتاعته وأمشى فى الجنازة وراه.

غصب عنك يا راجل وأنت ها تعمل إيه.. ها تيجى فى صاروخ، أنت مسافر وفى بلاد بعيدة والمسافة بينا وبين الإسكندرية سفر نهار بطوله، وأنت وصلت بسرعة كبيرة.

ما أنا يا حاج يادوب فوت على البيت، وأبلغت العيال بالسفر وعلى طول سافرت.

وأخبار ابن عمك الثعلب؟

والله يا حاج لم أقابله لأنه بيعمل فوق فى منطقة الجبل والجمعة أجازة.. وخبر الوفاة وصل السبت.

الحاج هارون: غصبا عنه يا جماعة عذره معاه.

وحتى يتوقف الحوار عند هذه النقطة ويبدد على الراوى حالة
الحزن التى تسود الجميع قال: شفت اللى حصل النهارده يا
أستاذ؟

فيرد خير حصل إيه تانى يا؟

الأطرش.

ماله؟

جاء ضريح الشيخ وحشى النهارده ورجم السما بالطوب

..ليه؟

علشان فات كام سنة على زواجه ولم ينبج.

الحاج هارون بتقول إيه يا على.. الأطرش كان بيرجم السما
بالطوب، دا كفر والعياذ بالله

الأستاذ عبد اللاه: كفر أيه يا حاج بس.

ما أنت عارف دا راجل أخرس مش فاهم وصعبانه عليه نفسه،
وعاوز ينبج عيل يحمل اسمه، واللى بيعمله ده عدم وعى وجهل.
عدم وعى إيه يا أستاذ هو فيه حد عاقل يحذف السما بالطوب.
ومين موافق على تصرفاته. بس كلمة كافر كبيرة وصعبة.

كان الأطرش قد تزوج منذ سنوات، ولم ينبج وكل يوم يبكى من
أجل عدم إنجاب زوجته، وعندما يشتد به الحزن يبدأ فى رجم

السما بالطوب، ولم تدم أحزانه، فبعد فترة قليلة حملت زوجته ورزقه
الله بخمسة أولاد وفرح كثيرا وبالع في تدليلهم بشكل ملحوظ.

.....

كنا نحن الأطفال نذهب صباح كل يوم في إجازة المدارس
إلى ضريح الشيخ وحشى، نحتمى به من لهيب أشعة الشمس
الحارقة، والاستمتاع بجو المكان الرطب لأن البناء الهندسى
للضريح جرى على شكل قبة مرتفعة دون استخدام أى أعمدة..

كل أرضية الضريح مغطاة بالرمال التى ترطب من حرارة
الجو، وتكسوها حصيرة كبيرة نجلس لساعات طويلة داخل
المبنى نلعب الكوتشينة، وننام وبات الشيخ مقرا لنا تعرفه الأسر
ولا تطمئن لوجودنا فيه.

لم يكن أحد يفكر على الإطلاق فيما يمكن أن يحدث له من
مشاكل صحية فى المستقبل، كما لا أحد يخاف من الموت
غرقا.. الكل كان سعيدا بالاستحمام اليومي فى مياه البحر
والذى تحول إلى بحيرة بعد أن توقف سريان ماء النيل فيه نتيجة
توقف الفيضانات بعد بناء السد العالى، البحيرة تمتد بطول
القرية، وتشق البحيرة قلبها، ولكنها تحتل الجانب الغربى من
نجع وحشى، وتفصل بينها وبين (نجع كوم الجورون) على
الناحية الأخرى.

ورغم عرض البحيرة الكبير فإن المشكلات بين شباب
النجعين لا تتوقف كل يوم و تدور المعارك قذفا بالحجارة،

وباستخدام وسائل بدائية مبتكرة تساعد على قذف الحجر إلى أقصى مسافة مثل (المقلع).

عصر كل يوم كان يقف الفتیان على الشاطئين ويتبادلان قذف بعضهما بعضا بالحجارة، دون سبب واضح وكأن الموضوع بات عادة من العادات اليومية التى تشكل معالم اليوم، أو التى تدخل فى إطار الطبيعة المفروضة على الناس... لم يفكر أحد فى الأسباب التى تجعل علاقات الجوار بمثل هذه الصورة ؟ خصوصا أن الحياة تفرض على كل الأطراف تبادل المصالح والعلاقات، والبيع والشراء فى السوق وكانت هناك كثير من حالات المصاهرة ومع هذا كثيرا ما كان يتطور الهجوم ويصل إلى حد التشابك بالأيدى، عندما يسبح أي من المتعاركين مدعوما بشجاعة وثقة بالنفس إلى الضفة الأخرى من الشاطئ، ويقترب أكثر من هدفه ويوجه حجارته إلى الخصوم عن قرب وبعد إصابته إلى هدفه يعود ثانية إلى الشاطئ الآخر عوما كما لو كان فتح عكا.

كل يوم بعد صلاة العصر كنا نذهب إلى شاطئ البحيرة، وتحديدًا إلى موقع شجرة (النبق) تلك الشجرة التى تحتل أفضل منطقة فى الشاطئ الممتد بطول نجع وحشى من حيث نقاء المياه ونظافة الشاطئ..

وتحت ظل الشجرة نخلع ملابسنا، وهى عبارة عن الجلباب والفانلة الداخلية والسرورال الشورت، ويضع كل واحد ملابسه على فرع من فروع الشجرة، وقبل النزول إلى البحر نتسلق

الشجرة بحثاً عن ثمار النبق فيها، وكل يوم نفعل الشيء نفسه رغم أننا جميعاً نكاد نكون قد حفظنا كل فروعها وعدد الثمار فيها. ومع هذا كانت لا تخبى ظننا ونجد الثمار فى الفروع المتباعدة.

كان البعض يفعل شيئاً آخر قبل نزوله البحر حيث يقترب من أشجار النخيل التى تتناثر على مسافات متباعدة من الشاطئ، خصوصاً الأشجار التى لا تحظى بالاهتمام من أصحابها، ويبدأ فى قذفها بالحجارة حتى يسقط الرطب و البعض الآخر يتلصق النخلة ويمسك بجنوة البلح ويهزونها بقوة فيتساقط منها البلح على الأرض..

منا من كان يحتفظ بسرواله إلى حين نزول البحر، ثم بعد ذلك يخلعه و البعض الآخر يحتفظ به طوال ساعات العوم.

حسين هو الشاطر الذى يجيد فن صناعة مركب من الغاب الأخضر الذى يملأ شواطئ البحر من ناحية نجع كوم الجورون، يقفز إلى المياه ويواصل العوم حتى الشاطئ الآخر، وقبل حضور فتيان نجع كوم الجورون، يبدأ فى تقطيع أعواد الغاب وبعد أن يجمع حزمة كبيرة يبدأ فى تنسيقها وصناعة قارب منها، ودون أن يستخدم أية وسائل أخرى غير أعواد الخوص، وكانت على الدوام مركبة متميزة ومنسقة، وتصمد طوال رحلة العوم الممتدة فى مياه الحيرة التى كانت تبدأ من بعد صلاة العصر، حتى غروب الشمس أو حتى بدء المعارك مع فتيان النجع الآخر.

المركب عبارة عن كمية كبيرة من أعواد الخوص يتم تنسيقها بطريقة ما تضمن له النوم فوقها مستلقيا على ظهره، دون أن تطوله المياه لساعات وييده عدد كبير من أعواد الخوص التي نسقها وربطها، على شكل مجداف، يحرك بها القارب حسبما يريد، وعندما تلسعه أشعة الشمس يقفز من فوقه، ويغوص فى أعماق المياه يبلل جسده العارى بالمياه ويختبر قوة تنفسه، وسرعان ما يعود ثانية إلى قاربه. والكل يغار منه ومن قاربه المنسق.

شعبان الأسرع فى العوم ودائما يفوز فى مسابقات العوم، ولديه ثقة كبيرة فى مهارته وقدرته على الفوز بالسباق، وكان على الدوام رشيقا فى العوم ذا نفس طويل وملمح خاص.

أما إسماعيل فكان شرسا فى منافسات الغرق، ويبدو كأنه شاب بلا قلب . فالشاطئ يسمح لمن لا يجيد مهارة العوم بالوقوف والاستحمام ولكن على بعد يقل عن مترين تقريبا من الشاطئ، بعدها تبدأ منطقة الغريق وكان إسماعيل يضغط بقوة على البعض خصوصا من لم يتعلموا العوم بعد حتى يجرحهم إلى منطقة الغريق لإرهابهم وتخويفهم، وكأنه يتلذذ بعذابات الآخرين حتى الذين كانوا يجيدون فن العوم لايسلمون من رزالته وعدوانيته.

فهو بطبيعته شخص عدوانى يفسد الأشياء الجميلة التى كانت تمتعنا، فعندما كنا نجلس وسط الحقول التى توفر قدرا كبيرا من الحرية للفتيان بعيدا عن متابعة الآباء وتنفيذ طلباتهم، مثل مشاركتهم العمل فى الحقول أو خدمة المواشى.

كان إسماعيل يفتعل المشكلات، ويحول الجلسة سريعا إلى خناقة يكره أن يعيش في هدوء على الدوام يشك في الآخر ويتربص به، بدون مقدمات تجده ألمح إلى أن ابن عساكر يفعل الممنوع، وبالأمر سبق إلى منطقة الحقول ونحن نجلس في ضريح الشيخ وتبعه إلى هناك جلسة النجس دكرورى، ولا يكتفى بذلك بل يقول أنا أحسست بكل الذى حدث فتركت الضريح دون أن يشعر أحد، وذهبت إلى وسط الحقول وبالراحة وصلت ووجدت حركة فى غيط الشلقامى وعندما اقتربت من الصوت لمحت ابن عساكر يجرى والنجس دكرورى يجرى خلفه، كانت الألسن تتحدث عن تصرفات ابن عساكر وعن حياته، ومشاكله وتعثره فى الدراسة و العمل وفى كل شىء.

الرجال يتشككون فى مغزى حب الفتيان لهذه المنطقة، وكانت عيونهم تتلصص على الفتيان من خلف أعواد النرة العالية يرصدون ما يفعلون ويراقبون سلوكهم ويتنصتون على حكاياتهم.

الكل يتحدث عن شاكر ذلك الشاب الذى لم ينل حظا من التعليم، وكان يداوم على إحضار الزار فى منزله كل شهر تقريبا، ويرتدى زى النساء ويواصل طوال الليل الرقص والهيجان

حفلة الزار تبدأ بعد صلاة العشاء مباشرة، وتتخذ من المنزل حجرة نائية وتجلس سيدة غريبة الشكل والمنظر وسط عدد من السيدات والرجال أو أشباه الرجال، وتبدأ فى دق الطبول والغناء بصوت مقبض ومخيف مخاطبة الجن والشيطان.

وبعد وقت قصير يبدأ شاكر فى الظهور وقد ارتدى فستانا من النايلون لونه أحمر، ووضع فى أذنيه حلقا وطلّى يديه بالحناء، ويبدأ فى التمايل يمّنة ويسرة ومع مرور الوقت ترتفع حركاته وتتصاعد إيقاعاته.

البعض كان يهمس سرا وجهرا عن أنه رجل مخنث، والبعض الآخر يتحدث عن مشاهد ضبط فيها متلبسا بالغواية، هناك من يردد إنه رجل له شارب ولكن كل سلوكياته تقول إنه يشبه سلوك البنت فواكه أخته.

لا يميل إلى ألعاب العنف كان يسبح فى البحر مستمتعا بحالة العراء العامة التى بدا عليها، منذ وصوله إلى الشاطئ، صوته هش، وحركاته بعيدة عن فحولة الشباب وقوة الرجال.

لم يكن هو الحالة الوحيدة التى تلوّكها الأفواه والألسن، هناك حالة أخرى هى حالة عطية وهو شاب سريع الغضب والانفعال.. بدايته تشير إلى أنه سيكون شابا انطوائيا، لا يميل إلى الظهور كثيرا، يجلس طوال الوقت فى المنزل ويقضى الأيام بل الأسابيع دون أن تشاهده فى الشارع، ويستمتع جدا بمجالسة النساء والرغى معهن والخوض فى تفاصيل تخص المرأة.

ومع مرور الوقت بدأ عطية يظهر ويمارس اللعب مع الأطفال إذ استهوته بعض الألعاب وسيطرت تماما عليه . ولكنه كان خطرا حقيقيا على شباب القرية فهو نوعية غريبة على الشباب، حاد الطباع وسريع الغضب والغلط فى الوقت نفسه، ولكنه فى الليل ينجح فى رمى شبّاكه على أحد الشباب ويقنعه بالذهاب معه إلى

الحقول ليمارس معه الغواية، وكان يفعل ذلك فى سرية تامة دون أن يكتشف أمره أحد.

ولا يختلف كثيرا ابن عساكر عن عطية فى شىء، إلا أن ابن عساكر يجاهر تماما بسلوكه وتصرفاته، ولكنه لم يضبط فى أية مرة وهو يمارس الغواية أو فى مشهد مشين، وإنما كان حريصا على حضور حلقات الزار وارتداء لباس النساء المثير، وفعل كل الأشياء التى تفعلها النساء خلف الأبواب المغلقة، عندما تتزين لزوجها أو حتى عشيقها، ودافعه فى ذلك هى الحجة الشهيرة التى نسجها وهى أن الجان يسيطر عليه وحالته أنه مصحوب بواحدة من الجنيات التى يروق لها فى مثل هذه الحفلات ارتداء اللون الأحمر الصارخ، والتطيب بكل صنوف الزينة.. ومهما حاول الأستاذ عبد اللاه إقناع الناس فى القرية بأن كل هذا مجرد تخاريف وسلوك شاذ، إلا أن الناس لا تقتنع وتعتقد فى قصص الجان والعفاريت، بل وكانت تخشى على الأستاذ عبد اللاه من تعرضه للمكروه بسبب كثرة كلامه وتلميحاته عن أهل الجان.. وفى كل مرة كان ابن عساكر يصله إليه احتداد الأستاذ على حفلات الذكر، كان يصيح بأعلى صوت وهو متقمص صوت امرأة فى لحظات الغضب ويقول مخاطبا الجان: اتركوه لا تفعلوا به المكروه.. هو لا يعرف.. هو لا يعلم.. ويختتم وصلته المكررة كل مرة بقوله سامحوه.. سامحوه..

عصر يوم ٢٨ من سبتمبر ١٩٧٠ كنا نجلس على شاطئ البحر بكامل ثيابنا، لم نخلع الملابس ولم ننزل الماء، إحساس بالحنن كبير سيطر علينا، القرية كلها تعيش لحظات حقيقية من الحزن والحسرة.

على غير العادة الكل كان يتابع أخبار مصر، ويتلهف لمعرفة ما حدث وما الذى يمكن أن يحدث؟

مات جمال عبد الناصر.. لم يفكر أحد من قبل فى أن لكل إنسان نهاية.

حتى جمال الأسطورة لابد وأن تكون له نهاية.

كان عنتر أبو خصلة يضع الراديو على بنك الدكان الذى يملكه، ويرفع صوت الراديو إلى أقصاه، ويجلس يستمع هو وكل الحاضرين معه لخطاب الرئيس، تتوقف حركة البيع والشراء فى المحل تماما طوال ساعات الخطاب.. كما لو كان ينتظر شيئا محددا. بل ويطرد الأطفال الراغبين فى شراء الحلوى أو

احتياجات البيت منه، لا يفعل أى شىء يحول دون استمتاعه بالخطاب، ويتفرغ تماما لمهمة الإنصات إلى الخطاب، وكأنه باحث دراسات عليا فى إحدى الجامعات، وينوى عمل تحليل مضمون للخطاب، يرسل ابنه إلى البيت لإعداد براد من الشاى، ويضع علبة السجائر وصندوق الكبريت أمامه، ولا صوت يتداخل مع صوت عبد الناصر سوى صوت الشاى وهو يندفع من فتحة البراد داخل الأكواب، وقبل أن يفرغ من الكوب الأول يكون قد نادى بأعلى صوت على ابنه من أجل إحضار براد جديد، وهكذا تتوالى أكواب الشاى حتى ينتهى الخطاب، وكلما أعجبه عبارة من عبارات الخطاب أو كلمة من كلماته يقول الله .. الله راجل يا جمال، وبعد انتهاء الخطاب يكرر عنتر عبارة (والله الرئيس راجل بجد) يا سلام عليه ربنا يحميه .. ويسرعة يقول له أحمد أبو النجا هو الرئيس النهاردة قال إيه مهم؟

فيرد قال حاجات كثيرة قوى مهمة دون أن يتذكر كلمة واحدة من الخطاب.

كان معظم الناس يستمعون إلى الخطاب فى القرية دون أن يستخلصوا منه ما يهمهم الحماسة الكبيرة التى كان يبدو عليها الرئيس أثناء الخطاب، كانت تشدهم إليه بقوه وانفعال دون وعى لمضمونه أو كلماته، وهذه ظاهرة موجودة حتى مع خطيب مسجد القرية كل جمعة، بعد الصلاة يقول أبو خطوة الله على الخطيب كلامه حلو، وخطيب تمام والخطبة بتاعته النهاردة حاجة ما حصلتش، وعندما تسأله ما الذى فهمه أو عرفه من الخطبة تجد لا شىء.

كان البعض يبالغ كثيرا بعد الخطاب ويقول صوت جمال عبد الناصر القوى، تسبب فى اهتزاز الراديو كما لو كان زلزالا ضرب المكان، مما أدى إلى سقوطه على الأرض، وانشطرت نصفين من قوة الصوت والبعض يعتقد فى صحة مثل هذا الكلام.

ابن عساكر حضر إلى الشاطئ، وقال الرئيس مات يا أولاد... والناس فى مصر زعلانة قوى، ومن شدة الزعل استحمت بالحبر حزنا على رحيله.

استحمت بالحبر جملة بعدما سمعتها وجدت نفسى مستغرقا تماما فى تخيلها، وبدأت أتصور ماء البحر الذى أجلس على شاطئه الآن وقد استبدل بالحبر الأزرق أو الحبر الأسود.

وبعد فترة من الصمت والسرхан قلت له ببراعة إزاي الناس تستحم بالحبر؟

كان الحبر بالنسبة لى ولكل التلاميذ مشكلة.

كل أصابع اليد اليمنى تقريبا بالكامل على الدوام تحمل آثاره، وحتى اليد اليسرى لا تسلم من رتوشه، كنا نستخدم أقلام الحبر فى الكتابة باعتبارها مؤشرا على تخطى مرحلة الرصاص، وكثيرا ما تسقط منا على الأرض وتمتلئ بالأتربة، ونبدأ فى تنظيفها أو إصلاحها وعلاج سنونها من الاعوجاج، وتكون النتيجة رشح الحبر على الأيدي كما لو كنا نستعد لعمل صحيفة الحالة الجنائية.

أُمى على الدوام تقول الحبر فيه سم يلاش تضع أصبعك فى
فمك، وعندما لا أستجيب يكون مصيري ضربة على وجهي.

وبعد ذلك يدعى ابن عساكر بأن الناس استحمت بالحبر.
بهذه البساطة يقول ذلك، ويكمل بعفوية الناس ملأت براميل كبيرة
بمادة سائل الحبر وغاصت داخلها .

سني جعلتني أصدق هذه القصة بحذافيرها، وانشغلت كلية
بها وبدأت أتخيل كيف ينجو شخص من ضرر الحبر الخطر، بعد
أن يغوص بكامل جسده فيه.

ابن عساكر لا يكذب. هو سَمِعَها من آخرين ولأنه يود أن يظهر
أمامنا أنه يعرف أكثر من غيره بادر برواية هذه الواقعة.
حالة من الحزن الدفين تخيم على القرية بأكملها.

شعبية عبد الناصر كبيرة جدا فى القرية، والناس تحبه وتثق
به، ومعظم المواليد من الصبيان يتم تسميتهم (جمال).

فى هذا اليوم لم تنزل البحر رغم حرارة الجو، ودون أن نتفق
مع بعض على ذلك، كل ما حدث بالضبط هو أننا نشعر بالحزن
على رحيل الرئيس.

نزول الماء عمل يفعله السعداء فقط لا الحزانى أمثالنا.
وتخيل الجميع أننا كما لو كنا نصطاف على شاطئ المعمورة أو
ميامى بالإسكندرية.

انصرفنا سريعا من علي الشاطئ فى ذلك اليوم على غير
العادة.. ولكن لا أدرى لماذا تحركنا بعيدا عنه وغادرناه! ذهبنا

إلى منطقة (اللبخة) كان يجلس هناك الأستاذ عبد اللاه، وكان من القلائل فى القرية الذين يملكون جهاز الراديو واستمع إلى خبر وفاة الرئيس عبد الناصر فى الإذاعة، التف عدد كبير من الرجال حوله يسألونه عن الخبر وهو يجيب وقال: إنه سمع أن الرئيس توفى بعد مجهود كبير بذله فى مؤتمر كان يحضره مع الملوك والرؤساء العرب وأكمل استمعت لجميع الإذاعات حتى أعرف سبب وفاة الرئيس، ولكن حتى الآن لم تظهر التفاصيل، ولكن إذاعة العدو قالت إن الرجل الخطر مات. كان يقصد إذاعة إسرائيل.

ويرد الحاج هارون خطر فى عينهم حتى بعد موته مش سايبيته فى حاله.

يا جماعة ما فيش حاجة معروفة الآن وكل الكلام مجرد شائعات والحكايات التى يرددها البعض غير حقيقية.

الحاج هارون: بتقول كده ليه يا أستاذ؟

علشان القصة التى رواها البعض والتى تقول إن الرئيس جمال عبد الناصر مات مسموما بفعل فاعل، والمؤامرة نجحت وحصدت حياة الرئيس الكبير.

فى هذه اللحظة انزعج بشدة الحاج هارون وقال: سم.. إزاي؟ هو الرئيس جمال كان بياكل من الشارع وفى المطاعم التعبانة.. فنظر إليه الأستاذ عبد اللاه نظرة كلها غيظ من طريقة تفكير الحاج الكباريه وقال له: مطاعم إيه وتعبانة إيه يا حاج

الموضوع أكبر بكثير من ذلك، الحديث الآن يدور حول مؤامرة دس السم للرئيس فى الطعام، أو العلاج أو أى شىء آخر، ولكن كما قلت كل هذا الكلام سابق لأوانه ومن غير المنطقى أن نصدق.

هنا تدخل إبراهيم أحمد أحد الحاضرين وقال: لماذا ننتظر يا أستاذ السم طريقة تم استخدامها عندما أرادوا التخلص من المشير عبد الحكيم عامر والكل عارف الحكاية.

فى هذه اللحظة كاد الأستاذ عبد اللاه يفقد كل مقومات الهدوء التى يمتلكها، وصرخ بصوت عال فى إبراهيم أحمد قائلا من الذى قال لك إن المشير مات مسموما موضوع الرئيس مختلف تماما يا إبراهيم وبلاش الكلام العيب.. وسادت المكان لحظات من الصمت والذهول لم يقطعه سوى تدخل الحاج هارون وقال :يا أستاذ هل سمعت ما قاله الحاج سليمان.

وماذا قال؟

قال إن صاحب محل البقالة الذى كان يشتري منه الرئيس جمال عبد الناصر حاجيات بيته ومطالب أولاده على النوتة (يعنى شكك) بادر فور علمه بنبأ الوفاة من تلقاء نفسه ودون أى ضغط، وقرر بلا تردد إعفاء أسرة المرحوم عبد الناصر من كل الديون المستحقة بعد ما علم بالوفاة، وعلى الفور أرسل وأحضر خالد الابن البكر للرئيس من الشقة التى تقع فوق محل البقالة، وكان فى حالة شديدة من التأثر والنحيب وأمامه أمسك بالدفتر البنى الذى يدون به البضاعة المبيعة ولم يسدد الزبائن مقابلها بعد،

وقال لخالد (الحسبة) التى فى ذمة أبوك، أى الدين الخاص
بوالدك براءة. ولا مليم يدخل جيبى منه، وأنا مسامح بطيب خاطر،
وهذا أقل شئ يمكن أن أقدمه لروح المرحوم الرئيس عبد الناصر
البطل.. بل وأقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يأخذ مليما واحدا، حتى
لو كان المبلغ مائة جنيه بحالهم .. وأمسك بالقلم الكوبيه وشطب
على صفحة جمال.. كما لو كان يسود الورقة حدادا على رحيله،
وقال له خلاص يا خالد يا ابنى ما فيش حساب عليكم ولا دين،
وخالد بكى بتأثر وقال له شكرا يا عمو ففرح الرجل بطريقة جعلته
ينسى الظرف والموقف وقال له كلمة يا عمو طالعة من فمك زى
العسل أنت ابن رئيس بصحيح.

.....

كانت الدائرة قد اتسعت وضمت أعضاء شلة السهر، وعددا
كثيرا من سكان القرية وجلسنا نحن الأطفال بجوارهم.

وقال الحاج هارون بلهفة وشغف كبيرين مخاطبا الأستاذ عبد
اللاه: وهل هذا فعلا حصل يا أستاذ؟ هو الرئيس كان بيشكك
برضه ويسحب على النوتة من الدكان، ويشترى السكر والشاي
والصابون على الآجل. ولحين الفرج وبيع المحصول؟

الأستاذ عبد اللاه بكل انفعال وتوتر حصل إليه يا حاج، أنت ها
تصدق زيهم التخاريف دى، الموضوع مش كده خالص والقصة
دى من الدماغ وما لهاش أصل من الحقيقة. الناس من ساعة موت
الرئيس وهى عماله تحكى حكايات وقصص من دماغها.

والشائعات مالية البلد كلها بل فى كل مكان فى العالم، الرئيس
شخصية كبيرة وصوته كان مسموعا وله وزنه، وخبر رحيله

بالطريقة المفاجئة لن يمر دون تأويل ودون تفسير، ولكن أنا مندهش من القصص الغريبة التي تتحدث عن البقال وخالد والنوتة.

الحاج هارون: ولكن أنت عارف الناس فى مصر بتحب الرئيس والناس بطبيعتهم عندهم شهامة، ولا يوجد ما يمنع من حدوث قصة شطب ديون الرئيس، وأنا عن نفسى مصدق الحكاية.

يا حاج: الرئيس ساكن فى فيلا أنا لما كنت طالب فى الأزهر شفتها وحواليها حراسة كبيرة، ولا يوجد على بعد كيلو منها بقال واحد والرئيس كان مشغولا على طول بالسياسة والبلد، وموضوع الشراء ده من اختصاص ناس ثانية.. أنت ناسى أنه رئيس جمهورية. ولا إيه يا إبراهيم أحمد.

لحظتها تذكر أنه صرخ بصوت عال فيه، وكان المشهد أمام كل الحضور وهو يعرف شخصيته أكثر من أى واحد آخر. فهو رجل حامى الطبع لايهاب أحدا، ويقول كلمته فى وجه أى إنسان مهما كان، ولكنه لم يشأ أن يرد على الأستاذ عبد اللاه لأنه يحترمه، وفى الوقت نفسه لم يود خلق مشكلة جديدة فى هذا الظرف الخطير الذى تمر به البلد ولهذا قال له : ما رأيك يا إبراهيم فى موضوع الشكك؟

فرد إبراهيم بصوت غير متحمس رأى إيه وأنت موجود كلنا بنفهم منك.. وعلى الفور شعر الأستاذ عبد اللاه أنه لايزال غاضبا من داخله وبسرعة كبيرة وفائقة تدارك الأمر وقال يا جماعة أنا محقوق لأن صوتى ارتفع على إبراهيم ابن عمى.. وبطبيعة معروفة عنه وقف إبراهيم واحتضنه وقال: الرئيس مات.. عبد الناصر مات..

.....

فجأة يعلو صوت السومعى بالنحيب والبكاء ويقول: الرئيس مش ها يتعوض تانى أبدا.. دا كان راجل ولا مليون، وعامل للعدو زعر كبير وكان ناوى يرمى إسرائيل فى البحر، ويخلصنا منها ومن بلاويها لكن القدر كان أسرع. وخطفه قبل أن يحقق هدفه وهدفنا ويخلصنا من البلوة الكبيرة إسرائيل ويأخذ بتاره منهم بعد نكسة ٦٧.

ويلتقط الخيط غريمه فى حب مبروكة السيد الفس، كما لو كان ينتظر هذه الفرصة لينقض عليه ويثبت لكل الحاضرين أن السومعى شاب أمى يتحدث فى السياسة التى لا يعرفها، ولا يفهم فيها وأنه غير محق بالمرّة فى منافسته على الفوز بمبروكة، والفارق بينهما كبير وممتد بعدد سنوات المدرسة التى درست فيها فى حين لم تطأ قدم السومعى فصولها إلا للعمل فى حفر بئر الصرف الصحى الخاص بالمدرسة وقت إنشائها..

وبسرعة قال: هذه فرصتى لكى أظهر الفرق الكبير بيننا خصوصا، أن والد مبروكة كان من بين الموجودين بل ويتقدم المجلس، وبجواره الأستاذ عبد اللاه فى مقدمة الحضور.

وبصوت واثق قال السيد الفس زعر أيه يا سومعى الذى تتحدث عنه، الرئيس رجل وطنى وقومى لكن حكاية رemy إسرائيل فى البحر هى السبب فى كل المصايب التى حلت فى مصر، وفى المنطقة العربية، وهذه العبارة الله يجازى اللى كتبها له. هى سبب البلاوى الكثيرة، ولا تزال تداعياتها مستمرة.

السومعى بغيظ وغضب مكتوم: إزاي يا سيد أفندى الكلام ده هوفيه واحد فى مصر لا يتمنى رمى إسرائيل فى البحر النهارده قبل بكره..

السيد الفس: هو دا الكلام الغلط وغير المضبوط، لأن العدو كان يستخدم تهديد الرئيس ويلفت إليه نظر كل دول العالم، ومن هنا كان التعاطف والمساندة مع إسرائيل، وخسرت مصر والعرب بسبب ذلك، وعموما المخطط الإمبريالى كان يحرك مؤامرات كبيرة ضد مصر دون أن يلتفت إليها الرئيس عبد الناصر وبالتالى دخلت مصر فى صدامات غير محسوبة نتجت عنها هزيمة كبرى هى هزيمة ١٩٦٧.

وحكاية رمى إسرائيل فى البحر فى غير صالحنا والعالم كله وقف مع إسرائيل ضدنا بسببها، لأنه تصور خطأ أنها دولة مغلوبة على أمرها وجيرانها يخططون لإغراقها وإزالتها من على وش الدنيا.

السيد يتحدث، والكل ينظر إليه بإعجاب شديد وتركيز واضح، وفى عيونهم نظرة إعجاب، وربما حسد على طلاوة لسانه.. إلا السومعى ورغم أن معظم بل كل الحاضرين - باستثناء - الأستاذ عبد اللاه - لم يفهموا المقصود بالإمبرالية والمخططات فإن طريقة كلام السيد وحذلقته فى الكلام وترتيبه للكلمات جعلت الكل ينصت بإعجاب إليه دون أن يعترض على كلامه أو حتى مجادلته.

وحاول السومعى الرد عليه من منطلق أنه موجود وهو الذى بدأ بالكلام والسيد يصطاد فى الماء العكر أمام والد مبروكة.

وقال: ناصر سبع ولا (بريالية) ولا غيره يقدر كان يلفه
ويضحك عليه.

الحاج هارون: اسمع يا سومعى أنت يا ابني جاهل زى
حلاتى، ولا تفهم فى السياسة سيب الكلام فيها للمتعلمين..

هذا الكلام زاد حنق السومعى غير أنه زاد من إحساس
السيد بالنشوة والإعجاب، ونظر بطرف عينه ناحية والد مبروكة
حتى يرصد تأثير مآدار من حوار عليه، فوجده لسوء الحظ
مشغولا بصنع سيجارة من ورق اللف، وكلما أحكم لف
السيجارة انزلت من يديه و تمرقت ورقة البفرة التى يحشوها
بالدخان الخام. وهو يحاول إصلاحها وعندما يفشل فى
استخدامها يفرغ الدخان ثانية فى العلبة الصفيح ويخرج من
دفتر البفرة ورقة جديدة ويعيد الكرة ثانية.

وعندما وجد الأستاذ عبد اللاه أن موقف السومعى ضعيف،
والبعض ينظر إليه نظرات تحمل بعض اللوم على تورطه بالكلام
فى السياسة، وهو الشاب الأمى قال: يا سيد كلمة زعر بالفعل
كان الرئيس عاملها لإسرائيل، وكل الدنيا عارفة كده لكن السياسة
مش زعر وبس السياسة خداع والصهاينة يتقنون جيدا أسلوب
الخداع، ونجحوا فى إقناع العالم كله خصوصا الدول الكبرى،
بأن عبد الناصر بالفعل سوف يرميهم فى البحر وعلشان كده كل
الدول الكبرى فى العالم كانت تقف فى صفهم وهذه مشكلة كبرى
عانت منها مصر والدول العربية.

السومعى: الله يفتح عليك يا أستاذ شفت يا سيد الموضوع
شكله إيه. وصمت واعتبر هذه العبارة هى طوق النجاة له من البئر

العميقة الذى غاص فيها وسط هذا الحضور الكبير، عندما تورط فى الحديث عن السياسة وهو يعلم مقصد غريمه الذى لن يتهاون ثانية فى إثبات الذات وكسب المقارنة حتى لو كانت على حساب أداء رئيس كبير فى حجم جمال عبد الناصر البطل الراحل.

كل هذه الأفكار وغيرها جالت سريعا فى عقل السومعى، وتمنى لو غادر الجميع المكان دون أن تكون قد علقت بالذاكرة أية تفاصيل لهذا الحوار وهذه المقارنة.

فطن السيد الفس إلى أن الموضوع يجب أن يتوقف عند هذا الحد، وإلا انقلب كل الحاضرين عليه وغضبوا منه لأنهم جميعا من داخلهم يعشقون طيبة وشهامة السومعى ورجولته، وأراد السيد ألا يدخل فى مناقشة مع الأستاذ عبد اللاه حتى لا يخسر الموقف ويظهر بشكل غير لائق أمام كل الحاضرين خصوصا والد مبروكة على اعتبار أن الأستاذ عبد اللاه شخصية تحظى باحترام الجميع وكلامها مسموع، وصمت لبعض الوقت ولكن فيما يبدو لم يعجب الكلام محمد أبوخطوة فقال: الرئيس الله يرحمه كان ناوى على الرد لكن مين عارف بكره ممكن يحصل إيه الحياة لن تتوقف والدائرة دوارة وإسرائيل ربنا معانا عليها.

لم يقطع هذا الجدل سوى وصول قبيصى قادما من بيته القريب جدا من ميدان اللبخة، وبدا عليه التأثير الواضح والوهن الظاهر والألم الدفين، وقال: بصوت وأهن على عكس طبيعته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد الجميع فى صوت واحد: وعليكم السلام.

وقال الأستاذ عبد اللاه البقاء لله يا قبيصى.

فرد: البقية فى حياتك أنت يا أستاذ.

جميع الموجودين يعتبرون أن قبيصى أقرب شخص للرئيس عبد الناصر، وأن حزنه على وفاته أكبر من أى حزن باعتباره فردا من أفراد القوات المسلحة، وجنديا يخدم فيها وأنه تحمل الكثير خلال السنوات الماضية، وكان ينتظر من الرئيس أن يعوضه ويعوض مصر خيرا عن كل ما حدث.

وبسرعة كبيرة تدخل الحاج هارون فى الحوار وقال: قبيصى الأجازة ها تخلص إمتى؟

فرد عليه قبيصى أنا جاى أودعكم يا حاج.. أنا حالا مسافر. ليه يا ابنى ما كنت جاى لمدة أسبوع، وأجازتك لسه فاضل فيها خمسة أيام بحالها.

البلد فى حالة طوارئ الآن يا حاج وتم استدعاء كل أفراد الجيش من الإجازات.

السيد الفس يحاول استغلال حالة التوفيق التى بدا عليها منذ لحظات وكم تمنى لو أن مبروكة كانت حاضرة، واستمعت لرده البليغ على السومعى واكتشفت الفرق بينهما وقال: يا قبيصى أنت عارف مين الرئيس الجديد.

فيرد قبيصى لا والله وأنا أعرف من فين.

السيد: عموما لما توصل مصر ها تعرف.

السومعى تدخل على الفور فى الحوار كما لو كان ينتظر، يا أستاذ سيد ما فيش حد يعرف مين رئيس مصر الجديد.

السيد: إزاي يا سومعى الموضوع معروف والرئيس الجديد اسمه معروف.

هنا وجد الفرصة للنيل من السيد الفس، وقال دا كلام معقول
يا جماعة. ولا إيه يا حاج.

فيرد عليه قائلا، يا سومعى دى بلدهم وهم عارفين مين اللى
جاي واسمه مش مهم فى حاجة، وبكره الناس تتعود عليه ويبقى
مشهور ومعروف.

لا لا يا حاج مافيش زى جمال.. وكرر إسم جمال مرات،
هكذا قال قبيصى.

ونفض واقفا وقال: أشوف وشكم بخير يا جماعة.. وهب كل
الحاضرين بالوقوف لتوديعه بل وأصر الجميع على مرافقته حتى
محطة الأتوبيس الواقعة على الجسر الشرقى، ولكن قبيصى أقسم
بالعظيم ألا يتحرك أحد من مكانه، وأن يكتفى الجميع بتوديعه هنا
ولن يسمح لأحد يتكبد عناء الذهاب معه إلى محطة الأتوبيس.

فقال له الحاج هارون: بتحلف ليه يا ابنى باليمين العظيم
ولماذا تقفلها؟

كان يقصد أن قبيصى بعد أن أقسم بالله العظيم لن يكون فى
مقدور أحد تجاوز يمين القسم مهما كانت المبررات، وعندما لاحظ
قبيصى أنه تسرع فى حكمه وفى مصادرته على رغبة البعض فى
مرافقته حتى المحطة واستدرك ذلك قائلا: يا جماعة لماذا الإرهاق
هنا سوف نفترق وفى مكان المحطة أيضا سنفترق لابد من فراق
وبالتالى ما جدوى التعب والمشقة خصوصا أنت يا حاج.

وانصرف قبيصى ولحق به أشقاؤه حتى يودعوه إلى محطة
الأتوبيس باعتبار أن القسم لا يسرى عليهم فهم خارجه.

تقدم السيد الفس رسميا للزواج من مبروكة، ذهبت والدته إلى بيتها، وحملت شقيقته الصغرى زيارة تحوى أربعة كيلو جرامات من السكر، وخمس لفافات من شاي التموين، وكيس ورقى أصفر به ثلاثة كيلو جرامات من العنب البناتى الأسمر
الخبر انتشر فى القرية.

كان التوقيت غير مناسب من وجهة نظر الكثيرين، وبدأ الناس يقولون زواج إيه، والبلد حزينه ومين له نفس فى الفرح وغاز هذا أكثر شلة السهر.. وكان محور حديث الليلة الفاتنة، بعد أن فتح الموضوع محمد أبوخطوة بخبث شديد وبطريقة غير مباشرة عندما قال: ربنا يسهلهم ويساعدهم فى حياتهم الجديدة، والله الواحد بيفرح لما ربنا يوفق راسين فى الحلال..

بس لو الموضوع صبر شويه حتى بعد الأربعين بتاعت الرئيس كانت بقت الفرحة أحسن.

وأنا مش فاهم ليه السرعة دى وعدم الانتظار؟ وأدرك أحمد أبو النجا الطعم وتفهم أنه يريد فتح موضوع خطبة مبروكة

للسيد الفس. فرد عليه قائلا: بس أنت عارف أهلها وافقوا ولا رفضوا؟

رفضوا إيه ولا وافقوا إيه مش دا الموضوع يا حاج أحمد، أنا باتكلم على التوقيت والظروف التى تمر البلد بها. إحنا صحيح عايشين فى آخر الدنيا لا حد حاسس بينا، ولا إحنا حاسين بحد لكن برضه التمييز مطلوب، والأصول مفروض احترامها.

يعنى إيه ما حدش حاسس بينا يا محمد؟

وأيه الغريب فى الكلام يا حاج أحمد؟

إحنا هنا عايشين فى الصعيد آخر الدنيا لا نور ولا ميه، ولا تليفونات ولا شوارع ولا أى حاجة..

ناقص تقول ولا سيما. يا راجل إنت إتجننت.. ولا حصل لعقلك حاجة.. عاوز الحكومة تفكر فى الصعيد وتفكر فينا.. طب ليه؟ ومن إمتى ده حصل؟ كل اللى هم فالحين فيه طالقين علينا شوية الأرجوزات يطلعوا نكت، والتلفزيون دايمًا عامل الصعيدى مسخه، عموما كتر خيرهم علشان هم سايبنا فى حالنا. إحنا حاسين إننا كمالة عدد ومش محسوبين لا مش إحساس، دى الحقيقة بعينها، ويمكن مش موجودين على الخريطة بتاعتها من أساسه.

البلد دى بتحب ناس بحرى بس وخيرها رايح لهم . أما نحن يدوب ناكل ونشرب (ونشتر) زى البهايم، طيب أنت حسبت كام واحد مات فى المستشفى من الإهمال الأسبوع اللى فات؟ وكام

واحد نايـم فى البيت من غير لا شغلة ولا مشغلة؟

كان عنتر أبو خصلة يستمع إلى الحوار وكله غيظ لكنه لا يريد أن يظهر هذا الغيظ..

وسأله أبوخطوة، رأيك إيه يا عنتر؟

فرد فى إيه.

فى حكاية الخطبة المسروعة بتاع البنت مبروكة والواد الأفندى بتاع المعلمين السيد الفس.

الموضوع قسمة ونصيب وأنت عارف السيد برضه ابن عمنا وزى السومعى بالضبط، واللى نفسه فى حاجة يعملها.

كان رده بليغا وغير متوقع على الإطلاق، حيث تخيلوا أنه سيكيل السباب للبنت والولد ويظهر شقيقه على أنه الذى رفض التقدم إلى خطبتها.

لكنه أكمل قائلا: يا جماعة عاوز أقول حاجة فى موضوع البندر والريف.

رد الجميع فى نفس واحد قول يا راجل ساكت ليه من الصبح.

أنتم عارفين الرئيس الله يرحمه كان من أسيوط، يعنى من قلب الصعيد وهو اللى عمل مساواة وفتح المدارس وطرد الملك وألغى الباشوية، طب عاوزين أيه تانى منه.

كنا عاوزين حاجة واحدة منه يا عنتر.

هى أيه يا حاج أحمد؟

يجى يزورنا مرة ويشوف حالنا على الطبيعة، هو زار الهند
والسند ولم يزr بلدنا، ولو كان فعلها كانت ساعتها ما تتغير
حاجات كثيرة لكن الله يرحمه كان معتمد على الناس اللي تحتيه
ومين يضمنهم. دول ضيعوه وضيعونا معاه. كل ليلة مغنى
ورقص وفنانات وفنانون والبلد في حالة توهان والنتيجة هزيمة
بطعم العلقم ونهاية أمل وحلم.

كان لازم الرئيس يمر على البلاد ويعرف الحقيقة وساعتها كان
كل كلامه سوف يختلف

.....

عاد السومعى من البندر حيث كان يعمل هناك، وفور عودته
عرف بموضوع زيارة أم السيد لمبروكة، شعر بضيق كبير وكأنه
مخنوق وقبل أن تكمل أمه عليه تفاصيل الزيارة قال لها خلاص
يا حاجة، مش عاوز أسمع باقى الحكاية.

لم يتخيل فى أى يوم من الأيام أنها ستكون زوجة لغيره وأن
حضن رجل آخر سيضمها بين ذراعيه.

هو يشعر من داخله على الدوام أنهما خلقا ليكونا لبعضهما،
بصرف النظر عن تهورها وعن ترددها فهى على الدوام تترقب
عودته من العمل وتنتظر هداياه البسيطة، والآن ضاع كل هذا بل
هى تضيع من يديه..

خرج من المنزل قبل أن يتناول طعام العشاء الذى وضعت له
أمه. وتحت اللبخة وجد عددا كبيرا من الرجال جالسين وعندما

شاهده الجميع وقفوا للسلام عليه والسؤال عن أحواله .. كان بين
الحاضرين السيد الفس عندما سلم عليه نظر السومعى ناحيته
نظرة حادة كأنه يقول له: فى غيابى فعلتها.

بادر الحاج هارون بالقول أيه أخبار البندر يا راجل؟

فرد عليه من تحت لسانه وقال كويسه، وكله غيظ ولسان حاله
يقول بندر إيه وهباب أيه دلوقتى! وأنت مالك ومال البندر؟

ولم يسكت الحاج هارون وإنما واصل كلامه قائلاً وأنت
مسافر تانى يا سومعى

ليه يا حاج؟

علشان نعرف ها تكون موجود ولا مسافر فى فرح السيد
الفس.

حتى الآن لا أحد يعرف هل هذا السؤال كان مقصوداً منه أم
لا؟! ولكن بكل تأكيد كان مؤلماً للطرفين للسومعى وللسيد فى
الوقت نفسه لأنه أثار الموضوع على الملأ، ووضع الرجلين فى
المواجهة. هنا يعتدل السيد من جلسته ويقول لسه بدرى يا حاج
وأنا مش ممكن أعمل فرح من غير حضور السومعى الأمير
الراجل الشهم.

فيرد السومعى طبعاً إن شاء الله أكون موجود فى ليلتك.

ولكون الموقف كان مؤلماً أشد الألم على السومعى، لم يتردد
لحظة واحدة ابن عمه الجريء إبراهيم أحمد، ويجاهر بالرأى الذى

لم يستطع أن يجاهر به غيره ويقول بالفم المليان: من له نفس فى الأفراح يا حاج الآن؟ ولا نسينا الرئيس بسرعة كبيرة، ما الناس تصبر شوية حتى علشان نفرح بجد ولا الموضوع ها يطير.

سمع السيد الفس الكلام ومن داخله قال: فعلا ها يطير مبروكة مين يقدر على منعها من الطيران؟ كان يكلم نفسه من الداخل، لاحظ الحاضرون ذلك فقال له الحاج: سرحت فى إيه يا سيد؟

فقال: ولا حاجة، وأكمل وأنا عاوز أقول حاجة يا جماعة الموضوع بدرى عليه وحتمًا الفرخ سيكون بعد مرور ذكرى الأربعين بتاعة الرس.

.....

كانت مبروكة ترتدى فستانا لونه أحمر منقوش بالورد الزهرى، وصدره بالكامل مصنوع من الدانتيل، وقد فردت شعرها الأسود الناعم على كتفيها، ووضعت فى عينيها الواسعتين الكحل، وبدت شفاتها بلون العناب، وبشرة وجهها طازجة مثل حب الرمان الذي قطف للتو من فوق الشجرة.

وعندما شاهدها والدة السيد قالت: بسم الله ما شاء الله زى القمر ربنا يحرسك من الحسد والعين، ابنى عرف يختار بصحيح

شعرت مبروكة بالكسوف ولكن شقيقة السيد الفس التى كانت تجلس إلى جوارها تدخلت سريعا فى الحديث وقالت: لها فستانك حلو اشتريته من فين؟

فأجابتها من مصر عمى هو الذى اشتراه.

أصله حلوقوى.

اتفضللى.

هو حلوق عليك أنت.

بكسوف شكرا.

أم السيد لم ترفع عينها من عليها طوال الوقت، كما لو كانت لم تشاهدها من قبل، لون الفستان الأحمر جعلها مثل الوردية الجميلة، الشعر الأسود الناعم والكثيف زاد من أنوثتها، نضارة بشرتها ورقة ابتسامتها كشف عن براعة فى وجهها.

وبسرعة غادرت مبروكة الحجرة حتى تحضر الشاى وانتهزت الأم الفرصة، وعلى الفور طلبت يدها من والدتها.

أم مبروكة كانت تعرف وتتوقع أن هذه الزيارة لها هدف واضح ومحدد هو طلب يد ابنتها للسيد، إلا أنها بدت كما لو كان الأمر مفاجأة لها وبعد أن سمعت عبارة، نحن لن نجد أحسن منكم ومن مبروكة ردت بهدوء وعدم حرارة: أنتم الأحسن، وأحنا أهل وطول عمرنا مع بعض كويسين، والسيد ابن حلال وطيب ومتعلم وييفهم.

.. ربنا يكرمك يارب ويفرحك بالباقى.

والآن ما رأيك؟

ما أنت عارفه يا أم السيد الرأى رأى الحاج وهو اللى كلمته
بتمشى، وأنا بعد ما يرجع من الغيطها أقوله وربنا يعمل اللى فيه
الخير.

وانصرفت أم السيد إلى بيتها.

كان السيد ينتظر منها الرد لكنها عادت وهذا أمر طبيعى دون
رد واضح.

بدت لهفته كبيرة على معرفة انطباع مبروكه عنه ورأيها فيه،
واختلى بشقيقته وحاول أن يعرف منها هل كانت سعيدة؟ وكيف
استقبلتهما؟ وقصت عليه شقيقته كل التفاصيل.

حكى عن جمالها ولون فستانها الأحمر وعن شعرها الناعم
الأسود الكثيف، وزادت فوق ذلك قائلة: لاحظت أن مبروكه عينها
منك، طار السيد من الفرح بعد سماع هذه العبارة وخرج من
الدار فى حالة نشوة كبيرة وإحساس بالسعادة، وتخيل أن الأيام
مرت سريعا وجمعه سقف واحد مع حبيبة القلب والكل يتحدث
عنه باعتباره الفارس الذى خطفها.

قرر إسماعيل عدم دخول الامتحان وأبى أن يدخل امتحان مادة الحساب.

أمه فعلت معه المستحيل أعطته جنيها صحيحا حتى يوافق على الذهاب إلى المدرسة ولكنه رفض، ضربيته بشدة فظهر عنيدا وقاسيا، ولا تشعر بأنه يتألم من شدة الضرب، ألبسته ملابس المدرسة بالقوة، وأخرجته أمام البيت لا يزال هناك بعض الوقت كي يلحق بموعد الامتحان ومع هذا كل الشواهد تقول إنه لن يذهب.

طلب قلم حبر، أجابت أمه طلبه وأرسلت شقيقه الأكبر إلى دكان بعيد واشترى له القلم، وبعد وصوله رفض أن يتحرك، كيف وهو اشترط شراء القلم حتى يذهب، فأجاب والكل ينظر إليه بنوع من الغيظ والغضب، فبين الحبر ؟ أنا أريد زجاجة حبر.

بسرعة قالت الأم : يا ابني اشترى له زجاجة حبر. وأكملت بصوت كله ألم يومك باين عليه من أوله حبر.

ولأن المسافة بعيدة والوقت لا يكفي تطوعت بإحضار زجاجة حبر كانت معى فى البيت حتى نلحق الامتحان.

أنا وإسماعيل فى الفصل نفسه ندرس مع بعض، هو فى القرية طفل شديد العدوانية وكثير المشكلات وصوته مرتفع، أما سلوكه فى المدرسة مختلف تماما وعلى النقيض.

كان لايتكلم أبدا وخجول بدرجة كبيرة طوال اليوم الدراسى، وفى وجود المدرس لا تسمع له صوتا وعندما يوجه له المدرس سؤالا يبدو مرتبكا وضعيفا وغارقا فى الخجل والبلادة، ولكن فور الخروج من باب المدرسة يتحول إلى شيطان، كنا نحار فى تفسير ذلك. ما الذى يتغير فى شخصيته وتفكيره حتى يتحول فى اليوم الواحد إلى شخصين أحدهما صامت خجول والثاني متهور شرس مندفع شرير.

الوقت يمر على الأم سريعا بل أسرع من قطار الفجر، نصف ساعة فقط هى الزمن المتبقى على موعد بدء لجنة الامتحان، كل المؤشرات تقول إنه لن يتحرك من مكانه ولن يذهب إلى الامتحان.

قالت الأم بحسرة كبيرة وحزن أكبر من حزنها على وفاة شقيقها: أذهب أنت يا ناجح حتى تلحق بموعد الامتحان يا ضناى (أحسن) يفوتك، ذنبك أيه يا بنى فى كل ده علشان يضيع عليك أنت مطيع وهادئ، روح لغاية ما نتصرف معاه ربنا يهديه.

أم إسماعيل تنتظر منه أن يعوض خسارتها فى توقف شقيقه الأكبر عن الدراسة، وتتمنى لو واصل التعليم وتخرج ومعه

شهادة، كل شيء توفره له، فهي الوحيدة فى العائلة التى لم يحصل حتى الآن ابن من أبنائها على شهادة علمية، وها هى ترى أن ابنها قطع منتصف الطريق وبينه وبين الشهادة الإعدادية عام دراسي واحد وبعد ذلك يلتحق بالثانوى العام. فلماذا لا يريث الذهاب لأداء الامتحان اليوم؟ بالأمس ذهب، وأدى مادة اللغة العربية، واليوم مادة الحساب، وغدا اليوم الأخير.. وانخرطت الأم فى نوبة من البكاء، وهالت التراب فوق رأسها ولم يحرك كل هذا ساكنا لإسماعيل وأصر على قراره المفاجئ والغبي: بعدم الذهاب؟ مهما حدث.

كل الواقفين تعاطفوا معها وشعروا بالحنن الكبير لموقفها وودوا لو تركتهم يؤدبون هذا الولد.

تلميذ بعد عام دراسي كامل يرفض الذهاب لأداء امتحان اليوم قبل الأخير، ويتعلل بحجج لا أساس لها ولا تحرك توسلات أنه ودموعها فى قلبه أي شيء.

انهارت الأم تماما بعد أن قاربت الساعة على الثامنة صباحا لم يتبق سوى دقائق قليلة على الموعد، اليأس دب فى قلبها وجلست أمام البيت كأنها كومة من التراب، لا تعرف أين رأسها ولا أين قدميها ووضعت يديها على رأسها وغطت بالكامل جسدها بالطرحة السوداء ونحيبها لا يتوقف.

تدخل السومعى قائلا: تعالى معي يا إسماعيل سوف أذهب معك إلى المدرسة ونطلق سريعا بالحمار وإن شاء الله تلحق..

وداعبه أنت نسيت حمار السومعى فى الجرى ممكن يسابق
القطار، والامتحان كله ساعتان ونرجع نلعب مع بعض
والموضوع يعدى وتنجح وتصبح من الأوائل.. ولكنه لا يستجيب
ومر الوقت وتجاوزت عقارب الساعة الثامنة وطار الموعد أو
بالأحرى ضاع.

ودخلت الأم البيت وقبل دخولها نظرت ناحية إسماعيل
الجالس على الأرض وكأنه غريب عنها لم ترضعه من قبل وقالت
له بصوت حزين (كسرت قلبى إلهى يكسر قلبك)، ودخلت بيتها
وأوصدت الباب خلفها.

وارتمت فوق أقرب حصيرة مفروشة داخل صحن البيت
ودارت بها الدنيا وجال بخاطرها الكثير.

إسماعيل الذى تتمناه مدرسا أو ضابطا أو طبيباً أنهى بيده
كل شئ وخرج من المدرسة، لم يدخل الامتحان، ضاعت معه
أحلامها فى أن يصبح لها ابن يكمل تعليمه ويلتحق بمدرسة
المعلمين أو بالجامعة.

ولأن الجميع كان يعرف مدى حزنها فكر السيد الفس فى أى
شئ يطيب به خاطرها، وينقذ الموقف المأساوى الذى حل بها،
وهده تفكيره إلى فكرة جيدة وهى استخراج شهادة طبية تفيد
بأن المحروس لم يغيب وإنما تغيب بسبب قهر مرضى فأجابه
صباح يوم الامتحان.

كان السيد وغيره يفكرون فيها.. لم يفكروا لحظة واحدة فى الابن المارق، فهو لم يترك فرصة واحدة لكى يتعاطف معه أحد، كما لم يكن حكيما ولا مقنعا ولا حتى مقبولا فى تصرفاته .

وكان الجميع ينظر إليه على اعتبار أنه ابن عاق لا يعرف قلبه الرحمة.

وبعد تردد طرق السيد باب بيتها الموصد، لم تسمع الأم أى شىء ولا تريد أن تسمع أى شىء.. وبعد ارتفاع صوت الطرقات فتحت شقيقته الصغرى الباب وسمحت له بالدخول، ووجدما جالسة وهموم الدنيا كلها حلت عليها، لا تشعر بمن حولها ولا تدرى من دخل البيت ولا من خرج منه ولم تدم حيرته وقال لها بصوت متردد لا داعي للحنن يا أم إسماعيل..

فردت عليه قائلة وحياة النبی الغالى ما تجيب اسمه على لسانك أنا خلاص كرهته، وتبريت منه لا هو ابني ولا أنا أعرفه.

فقال لها دا من بره قلبك هو الدم عمره يبقى ميه عموما أنا وجدت حلا للمشكلة.

حل أیه يا ابني هو اللي انكسر عمره يتصلح. من أمتى شىء انكسر يرجع ثانى سليم زى ماكان.. وأنت عارف الامتحان مثل القطار اللي يفوته لا يمكن أبدا يركبه.. إسماعيل حطم قلبى وقضى على، وربنا هو وحده قادر على كل شىء، أنا خلاص بينى وبين القبر مسافة بسيطة لكن كان نفسى أفرح به قبل ما أموت

وأشوفه راجل محترم وأرحمه.. وحتى لا يتركها تسترسل فى الكلام والأحزان قال لها ما فيش حاجة انكسرت ولا يحزنون، الموضوع له علاج وبكره يحضر اليوم الأخير، وأنا الآن سوف أذهب إلى الوحدة الصحية حتى أستخرج له شهادة طبية تفيد أنه مريض حتى يسمح له بمواصلة الامتحان وينجح بملحق وفى الصيف يمتحنه، وإن شاء الله ينجح وينتقل إلى الصف النهائى الإعدادى.

ردت بلاش تتعب نفسك.. أنا عارفة حظى فى الدنيا، ابنى جاب من الآخر، وفتح باب المواجه على آخره، حكاية الامتحان النهارده كبرتنى فى السن مائة سنة بحالها، عمرى ما كنت أتوقع منه يعمل كده.. كان نفسي أشوفه زى (ناجح) ابن عمه شاطر فى الدراسة أنا تعبت فى تربيتهم، أبوهم طول عمره مسافر وأنا شايلة وحدى الهم وما فيش حد حاسس بيه، الصبح صحيته بدرى وجهزت له طعام الإفطار وأعطيته جنيها لأنه اشترط على ذلك، وبعد كل هذا يقول: لن أذهب إلى الامتحان.. لماذا يارب، طول عمره تاعبنى معاه وأنا وخداه على كفوف الراحه لكن باين الدلع وصلنا ليوم زى النهارده.

السيد الفس يبحث عن كلمة يتلج بها صدرها، ولكن كل الكلمات ضاعت منه فى هذه اللحظة وفجأة وقف وقال لها: أنا فى طريقي إلى المستشفى من أجل إحضار الشهادة الطبية، وبقلب الأم وطيبته ورغبتها غير المشكوك فيها رغم كل ماحدث قالت: يا ابنى ربنا يبارك فيك..

فى هذا اليوم عقد إسماعيل العزم على إنهاء علاقته بالمدرسة، وبصرف النظر عن مجهودات السيد فهو لن يدخلها ثانية ولن يؤدى الامتحان؟ لا أحد يعرف ولاهو لماذا قرر فجأة العصيان؟ ونفذ ما قرره.

قضى يومه متسكعا فى الشوارع وعلى المقاهى الصغيرة. وعندما يسأله البعض لماذا لم تذهب للامتحان؟ كان يرد ويقول: أحسن. ولا أحد يفهم معنى هذه الكلمة، وصرف الجميع النظر عنه وتركوه حتى لا يفسد بقية التلاميذ.

كنت كلما تقدمت خطوة فى الدراسة أشعر أن أم إسماعيل تمنى لو ابنها خطأ معى الخطوة نفسها، تراقبني على الدوام من على بعد، وأنا فى قرارة نفسى أشعر بمدى حزنها، وتمنيت لو كان الأمر بيدي، وأديت الامتحان نيابة عنه حتى أحقق لها حلمها، وكنت اسأل نفسى كثيرا هل من الممكن أن أكون ابنها أيضا وتفرح لى وتفرح بى، كنت مشغولا على الدوام بهذا الأمر، وكلما تذكرت صباح ذلك اليوم الذى تمرد فيه ابنها على كل شىء، جميل واختار الأسوأ لحياته أشعر بالحزن والغيبض منه ومن تصرفاته.

لا أدري هل هذه مصادفة؟ أم شدة اهتمامها بى والتي جعلتها تشهد كل اللحظات المهمة فى حياتى، فهى التى تسلمت خطاب الترشيح الذى وصلنى من مكتب تنسيق القبول للجامعات، وحدد لى الكلية التى سألتحق بها، كنت نائما فى هذا

اليوم بالطابق الثانى فى بيتنا الجديد المشيد بالطرب الأحمر
والأسمنت، والقلق يكاد يفتك بى طوال الليل أحلم بالجامعة
والكلية التى سألتحق بها. وأتخيل شكل بنات الجامعة وطبيعة
العلاقة بيننا والجلوس فى مدرج الكلية، وكشكول المحاضرات
والرحلات الجامعية التى طالما سمعت عنها، وبينما أنا نائم
جائنى صوتها من الشارع ونادت بصوت عال قائلة: أنا أريد
الحلاوة.

أمى تسألها حلاوة إيه.

فقالت معى جواب كلية ناجح.

تخيلت اننى أحلم.

كررت أم إسماعيل النداء وبلهفة شديدة نظرت إليها من
الشباك وقلت لها صباح الخير.

فقالت: الحلاوة.

وهبطت سلالم البيت سريعا وفى لمح البصر أخذت منها
المظروف بل خطفته وفتحته.

كان بداخله بطاقة لونها أحمر لن أنسى هذا اللون أبدا
ومكتوب بداخلها تم ترشيحكم لكلية الآداب.

طرت من الفرج، أمى ووزعت الشرابات وكان لونه أحمر لون
كارت القبول نفسه.. وجلست معنا فى البيت وهى تشد على يدى

وتدعولى وأنا غارق فى خجلى وفى قمة الأسف لعدم بلوغ ابنها هذه الدرجة.

وفجأة قفزت من جلستها وقالت مبروك يا ناجح ربنا يحميك، وكأنها ودت أن تغادر المكان سريعا حتى تخفى من عينيها دمعها لم تقدر على مقاومتها، وخرجت من البيت وأنا أتابع خطواتها وأقول شكرا وشك حلو، وعرفت أنها تذكرت ما لم تنسه أبدا.. طعنة ابنها الذي غدر بها وغدر بنفسه.

وبدأت فى عقد المقارنات فيما بيننا فهو الآن مجرد عامل بسيط، لم يكتسب أية صنعة فى الحياة فشل فى كل المهن التى التحق بها، لم يستقر فى وظيفة بعينها سافر إلى الاسكندرية، وهناك تعثر فى العمل وبالكاد استطاع تدبير ثمن تذكرة القطار وعاد دون أن يجنى أى شىء ثم كرر التجربة ثانية وسافر إلى مرسى مطروح، وتكرر الموقف نفسه لا شىء ولا استقرار، كل هذا تذكرته الأم وغادرت المنزل وفى داخلها حزن كبير وجرح غائر بينما أمى رقصت هى وشقيقتى.

.....

كان عوض طوال الوقت يردد، وبصوت مسموع (مغرب مغرب)
بكسر الميم وهى العبارة التى كان يستخدمها سائقو سيارات
الأجرة فى مرسى مطروح للنداء على الركاب المسافرين برا إلى
ليبيا.

كل كتب وكشاكيل عوض مكتوب فيها كلمة (مغرب.. مغرب)
وعندما حصل على شهادة الدبلوم سافر على الفور إلى مرسى
مطروح، ومن هناك نجح فى دخول ليبيا وحقق حلمه الكبير.
مكث فى ليبيا خمسة عشر عاما كاملة لم يقطعها ولا مرة
واحدة.

بعد سفره اختفت أخباره تماما لا أحد يعرف أين هو؟ ولا
ماذا يعمل؟ ولا حتى هل هو مازال على قيد الحياة أم لا؟

وبعد سنوات تزيد على الخمس وصل أول خطاب منه حمله
أحد المصريين الذين كانوا يعملون معه، وقرر العودة إلى مصر
مهما كانت التضحيات، كانت الفرحة كبيرة بعد وصول الخطاب،

وبعد ذلك عادت أخباره تأتي على فترات متباعدة، والده يسأل عنه، ولا أحد يعرف السر وراء بقاءه في ليبيا كل هذه السنوات.

ويقارن البعض بينه وبين المعلم عبده الذي فتح باب السفر إلى ليبيا، وحقق في سنوات سفره الأولى مكاسب مادية كبيرة ومع هذا لم يبق فيها سوى ست سنوات وبعدها عاد، وبنى بيتاً في وسط مساحة الأرض الزراعية التي يمتلكها مع شقيقه، وفضل الاستقرار في مصر على معاودة السفر ثانية، ولكنه لم يستقر في القرية بل نقل نشاطه إلى مدينة القنطرة شرق، واشترى محلاً هناك لبيع الملابس المستوردة الواردة من الصين وتركيا وكوريا واليابان.

ولكن أفة المعلم عبده كانت في أنه تقرب من حضرة النائب أحمد سداح عضو البرلمان عن الدائرة.

كان النائب شخصية قوية لها حضور كبير في البلد كلها، الكل يعمل له ألف حساب، اسمه شهير في عموم الدائرة، تركيبيته الجسمانية تعطيه مزيداً من الهيبة والوقار، وكان في كل دورة انتخابية يكتسح المعركة الانتخابية، مستغلاً الأساليب المشروعة وغير المشروعة من أجل الفوز بمقعد البرلمان، كلمته في البلد مسموعة وحكمه نافذ.

اعتقد أن التقرب من حضرة النائب سيضيف إليه بعداً آخر ويجعله شخصية لها حضور واسم معروف، وتلقفه النائب ومنحه بعض الثقة في النفس وكان يسهر معه كل ليلة تقريباً، يدخان

الحشيش ويحضر معه جلسات الصلح التى تعقد لحل المشكلات التى يتوسط فيها النائب وتخص الدائرة.

سخر سيارته البيجو لقضاء مصالح النائب، فى البداية كان يجلس صامتا فى جلسات الصلح، وشيئا فشيئا ومع مرور الوقت بدأ يشارك فى الحوار، ويتدخل بالنصيحة، ولا بأس من تدخله فى الكلام بشرط ألا يتجاوز النائب فى أى شىء، هذا الشرط هو الذى ألزم نفسه به، أما النائب فهو لا يتوقع على الإطلاق منه أن يفعل مثل هذه الحماقة ويتجاوزها.

وفى كل مرة كان يبدأ كلامه ويقول: بعد إذن حضرة النائب أنا شايف إن الموضوع بسيط والحل سهل وحضرة النائب فيه بركة كبيرة ولن يقبل بالحل المائل، وكان دائما يتورط ويقول بكره أنا عليّ (العجل) كان يتطوع بشراء عجل ويذبحه على شرف حضرة النائب، وهكذا بالغ فى كرمه، ودخل فى طريق لم يحسبه جيدا وبدأ فى تبديد كل ماجمعه من أموال خلال سنوات الغربة المضنية فى ليبيا، وتوقف تماما عن العمل والكسب وأهمل تجارته فى مدينة القنطرة، حتى وصل إلى المرحلة الخطرة وبدأ يستدين حتى لا يظهر بمظهر مغاير لما بدأ به، ولم يجد مفرأ سوى بيع آخر مظاهر الثراء ثمرة سنوات الغربة والكفاح السيارة البيجو البيضاء التى كانت مطمع الجميع وحسداهم.

باع السيارة بأمر من حضرة النائب عندما فشل فى الوفاء بتسديد ديونه، أصحاب الحقوق قصدوا حضرة النائب لاسترداد

حقوقهم من المعلم عبده الذى لم يعد قادرا على رد المبالغ التى اقترضها من الناس، وخيره النائب بين بيع السيارة، وبين بيع فدان الأرض الذى ورثه عن والده مع شقيقه من أجل تسديد الديون المتراكمة عليه، وكان الأهون عليه بيع السيارة.

وتدهورت أحواله المادية بشكل كبير خصوصا أنه كان قد تزوج امرأتين، وينفق على شقيقه شبه العاقل.

لم يشفع له قربه من عضو البرلمان بل إن الجميع حمل النائب أحمد سداح همسا كل المسئولية عن انهيار المعلم عبده وتدهور حالته المادية، ولسان حال الجميع يقول ما كان (كافى خيره شره) ماله هو ومال السياسة ونواب البرلمان.

لم يكن حال الكثيرين أحسن من حال المعلم عبده فكل من سافر إلى ليبيا وعاد لم يستفد من مهمته، بل فقد سريعا كل ما جمعه خلال سنوات الغربة ؟ البعض بدد تعب الرحلة فى بناء بيت من الطوب الأحمر والأسمنت والبعض الآخر افتتح مشروعا لم يدرسه جيدا، وفقد فيه حصاد ما جمعه..

.....

عاد عوض من ليبيا بعد سنين طويلة، لم يتعرف إلى ابنة شقيقته، ولم تتعرف إليه، شاهداها أمام باب البيت وسط عشرات الأطفال الذين كانوا ينتظرونه.

شقيقته قالت: لها خالك عوض.

نظرت الطفلة ذات الأربعة عشر ربيعاً بدهشة كبيرة ولم تنطق بكلمة واحدة.. كما لو كانت لم تستعد للموقف من قبل.. أربكتها صورته الجديدة.. فالشخص الذى تراه الآن يختلف كلية عن الصورة التى تحتفظ بها أمها له، الشعر الكثيف الذى يغطى رأسه غير موجود.. الوجه الطفولى يقسمه شارب كثيف، الجسد بات ممتلئاً وضخماً، اللهجة التى يتحدث بها غريبة لا تفهمها فكيف يكون هذا شقيق والدتها؟ كل هذه الأسئلة تدور فى رأس الطفلة، وغيرها المئات.

وشعر بالحرج وتدارك الموقف سريعاً وقال، وهو يخطو أول خطوة داخل صحن البيت: البنت كبرت وأصبحت عروساً.

فردت الأم عروسة، وأنت كل ده غائب بره مصر، لم يهتم بالموضوع أو بالأحرى تمنى لو تم تغييره فى الحال وقال لها «الله غالب».

أحضر معه عدداً من الحقائب الكبيرة المحشوة بالملابس من مختلف المقاسات والأحجام.. هو لا يعرف أحد ولا يعرف ما الذى يناسب من! اختار للحقائب حجرة صغيرة داخل البيت، وكان يصطحب كل من يريد إهداء شيئاً منها إلى داخل الحجرة ويعرض عليه بعض الأصناف ليختار منها ما يناسبه.

من وجهة نظره تغيرت أشياء كثيرة فى القرية بل فى مصر كلها.. لم يعد متألّفاً مع المتغيرات الجديدة يرى الحياة بطيئة، والرفاهية غير موجودة، اشتاق للعودة ثانية إلى ليبيا.

أهل القرية يتحدثون عن ثروة كبيرة ادخرها، وعاد بها، وكل صباح ومساءً يعرض عليه أحدهم مشاركته فى مشروع تجارى،

هو لا يعير كلامهم أدنى اهتمام.. لم يقرر بعد ما الذى ينزى عمله، ولم يعد مهتما بالمشروعات كل ما كان يفعله هو الحديث عن ماض لم ينصفه ولم يحقق له الطموحات العريضة التى كان يحلم بتحقيقها قبل السفر ورغم هذا يعتبرها أجمل سنوات عمره وأكثرها حميمية إلى قلبه.

وبمرور الوقت بدأ يضجر شيئا فشيئا بالقرية والحياة فيها.

سافر إلى القاهرة ومكث أسبوعا، وعاد ببعض الهدايا والمراوح الكهربائية، ثم سافر ثانية وشاهد حركة التجارة بها ولم يستقر، واتجه إلى مرسى مطروح أقرب المدن نسبيا إلى ليبيا التى لا ينساها، وهناك فكر فى بدء العمل، ولكنه سرعان ما تراجع وفكر أن يستقر فى العاصمة بعد أن طرأت فى رأسه فكرة وهى افتتاح مكتبة كمشروع تجارى.

اعترض البعض على الفكرة، والبعض الآخر رحب بها واعتبرها نقلة مهمة فى حياته ستجعل منه شخصا آخر غير عوض الذى عاد من الغربة دون أن يكون قد احتفظ بشيء من سنوات الطفولة والشباب، عاد يحب الجميع ولكنه لا يثق فى أحد.. عاد يتمنى مساعدة الجميع.. لكنه لا يعرف كيف يساعدكم! عاد وطموحاته لا تزيد على افتتاح مشروع صغير لا يزيد رأسماله فى أفضل الأحوال على بضعة آلاف من الجنيهات، فى حين كانت طموحاته قبل السفر أكبر من هذا بكثير.

هل أصبح واقعيا ويرى الحياة بمنظار مختلف؟ وله حق فيما يرى خصوصا أن التجارب التى سمع عنها، والتى شاهد بعضها منها للعائدين من الخارج معظمها تجارب كانت مخيبة للآمال

والطموحات، ولهذا تعلم الدرس واختار أن يتواضع فى كل شىء،
حتى ينجو بتحويشة العمر من غدر المشروعات الغضفاضة .

تحمست كثيرا لمشروع عوض وقلت: هذا المشروع سيغير
كثيرا منك وسيضيف إلى شخصيتك.

فقال كيف يا رجل؟

فقلت له: لأن المكتبة ستساعدك على القراءة، وهى الشىء
الوحيد الذى سيخرج من مخزونك الداخلى كل الخبرات ويجعلك
دون أن تشعر توظفها فى مصلحتك وفى مساعدة الآخرين.

فقال: ما علاقة مشروع لآكل العيش بما تقوله أنت؟

فقلت: بالتأكيد الإقامة المتواصلة خارج مصر وفى دولة لها
ثقافات وعادات مختلفة، ويعيش بها جنسيات مختلفة أكسبتك
خبرات كثيرة، ولكن المشكلة الوحيدة تكمن فى أنك كنت تعيش
فى بلد يفرض نظاما معيناً على من يعيش به.

فقال بنوع من الدهشة لماذا تقول هذا الكلام؟

فقلت له: منذ حضورك من ليبيا إلى القرية لم تذكر شيئاً عن
أى شىء، وكل كلامك مقصور على الليالى التى قضيتها مع
زملائك المغتربين والسهر مع الشلة فى الدار، ومن كان يقوم
بإعداد الطعام، ومن كان يساعدك باعتبارك صاحب عمل! لم
تحدث مطلقاً عن متغيرات مرت بك وعن خبرات معرفية
اكتسبتها ولا عن جدل طبيعى بين الأصدقاء، ومن أجل هذا كله
أنا سعيد بمشروع المكتبة.

فقال: لا تصور الأمر على أننى سوف أفتتح مكتبة تباع الروايات والقصص، وإنما أفكر فى مكتبة مدرسية تباع الأقلام والكراسات والأدوات البسيطة التى يحتاجها التلميذ، وسوف أضع بها بعض الهدايا والحقائب المدرسية.

قلت له لا فرق بين الاثنين.

كنت متحمسا جدا لمشروعه لأنه كان فى سنوات الدراسة مهتما بالمطالعة وصاحب خط رائع، وطالب شيك، يشبه نجوم السينما فما الذى تغير فيه؟ نظر إلى بنوع من الحيرة وصمت. أحسست من داخل أننى كنت متفلسفا عليه أكثر مما ينبغى، وتذكرت أنه أكبر منى فى السن وهو الذى قدم لى مساعدات حقيقية منذ عودته، وهو الذى كان كلما سنحت أمامه فرصة على الفور يستغلها ويرسل لى برسالة رقيقة وبداخلها مبلغ من المال كمساعدة فى مصروفات الدراسة الجامعية.

وفجأة نظرت إلى القميص الذى ارتديه فاكتشفت أنه كان هدية منه، بل اكتشفت أن كل الملابس التى ارتديها فى هذه اللحظة هو الذى أهدها لى وتمنيت ألا يغضب منى بعد أن يكتشف حقيقة ملابسى، وقلت له والخجل يملأ وجهى: لا تزعل.. فقال: (الله غالب).

كان يستخدم هذه الإجابة بكثرة فى مواقف عديدة، وينهى بها أى حوار عندما يريد إنهاؤه سريعا، ربما هى عادة من العادات التى عاد بها من سفره وربما وجدها حلا سحريا لإنهاء أى نقاش دون أن يصل إلى مداه.

توقفت تماما الأخبار الخاصة بخطبة مبروكة.. لم يعد يتحدث أحد فى هذا الموضوع، وكأنها تزوجت وتركت القرية فى حين لا تزال كما هى لم يتغير شىء فى قصتها.. فالسيد الفس أنهى السنة الخامسة فى مدرسة المعلمين وتم تعيينه مدرسا فى مدرسة القرية وكان البعض يظن - وإن كان بعض الظن إثما - أنه فور حصوله على دبلوم المعلمين سيتزوج على الفور منها، ولكن لم يحدث شىء من هذا..

السومعى حسم الأمر وتزوج من فتاة أخرى، بعد أن اكتشف أنها مناسبة له من نواح كثيرة.

لم يشأ الانتظار حتى يصل رد مبروكة، وقرر على الفور التقدم إلى الزواج من ابنة عبد الوهاب التى كان قد رشحها له أحمد أبو النجا.. وكأنه عثر على التائهة وطلب من والدته زيارتها بأقصى سرعة.

ذهبت الأم ومعها شقيقته وحملتا زيارة كبيرة من قطع صابون الغسيل وصابون الوجه.. وأربعة أزواج من الحمام وأشياء أخرى مثل الشاى والسكر والقمح.

كان السومعى معترضا بشدة على محتوى الزيارة ويعتبرها غير لائقة، لكن الأم قالت كده كويس.

يريد أن يتزوج قبل مبروكة حتى يكوى قلبها، ولكنه من داخله يقول لو تزوجت مليون مرة قبلها ما الذى يغيظها إذن؟ هى تعرف نفسها جيدا وهى التى تتعزز على العرسان.

كانت ابنة عبد الوهاب جميلة بحق، بل هى من البنات القلائل الجميلات فى القرية، ورثت جمالها عن والدتها ولكنها كانت دوما مشغولة بخدمة المواشى والعمل فى الحقل وتنظيف البيت وخدمة أشقائها، هى بالضبط كما وصفها أحمد أبو النجا.. مثل الجوهرة المدفونة فى التراب مجرد العثور عليها سيظهرها على الفور بدون مجهود.

الترتيب للزواج لم يستغرق وقتا طويلا، السومعى كان جاهزا.. الحجرة التى سيتزوج فيها تم طلاؤها، والسرير النحاس تم شراؤه.

الفرح حضره كل رجال القرية تقريبا، ذبح السومعى عجلا يزن ألف رطل وأحياء أشهر منشد فى عموم صعيد مصر، وسهر المدعوون حتى قرب الفجر، وكانت ليلة من الليالى التى لا تنسى.

أطلق فيها عنتر أبوخصلة قرابة صندوق بكامله من الذخيرة الحية، وكان يخال وهو يرفع البندقية فى السماء ويضغط على الزناد والحاج هارون يقول له: كفاية يا راجل أنا قلبى مقبوض

من كثرة ضرب النار.. وحياة الأموات خلى الليلة دى تمر على خير.

بدا السومعى عريسا متألقا، ولكن فى داخل عينيه تبدو لمسة من الحزن، هل سببها أنه لم يتزوج حبيبته؟ أم خوفه من تهور شقيقه الغارق فى إطلاق النيران كما لو كان واقفا على الجبهة المقابلة للعدو.. أم لكونه يرهب امتحان ليلة الدخلة الفظيع الذى يعمل له كل سكان القرية ألف حساب من كثرة الحكايات عنه.

فى مثل هذه المناسبات الرجال والنساء ينتظرون خارج المنزل لحظة خروجه، بعد أن يكون قد نجح فى امتحان الزواج، وهى عادة متوارثة.. حيث ينتظر الرجال العريس وتنتظر النساء العروس بعد الامتحان لتحيتهم بعد أن يكون العريس قد فض غشاء البكارة ورفعت أم العروس بسعادة كبرى ورأس مرفوعة المنديل الأبيض الملطخ بدماء الشرف، هذه عادة كل فرح.

مبروكة تعسة فى هذه الليلة، بدأت تشعر أن الرجال يتمنونها حبيبة ولكن يتزوجون غيرها، وكادت تبكى وهى تنظر فى المرأة، وتتحسس جسدها وتتأمل تقاسيم وجهها، ودارت بها الظنون.. وسبحت فى بحر متلاطم من الأفكار والهواجس وقالت وكأنها تتحدث مع نفسها، كل من تقدم للزواج منى سبقنى و تزوج غيرى، وأنا لم أتزوج بعد.. رغم أن الخطاب طرّقوا بابى قبل أن أكمل عامى الرابع عشر، لماذا؟ هل أستسلم لرغبة والدى الذى يود أن أتزوج من ابن أخيه المقيم فى القاهرة حتى لا يقاسم العائلة رجل غريب فى الميراث؟ وما ذنبى أنا فى الميراث؟ ولم

تتمالك نفسها وانخرطت فى بكاء متواصل دون أن يسمع له صوت.. وما أقسى البكاء المحبوس وما أصعب على النفس أحاسيسه.

وشعرت والدتها بحزنها وأرادت أن تهون عليها فقالت لها: بكره تروحي بيتك ونعمل لك فرح كبير أنت برضه مبروكة البنت الجميلة المؤدبة اللى كل الناس بتحبها وتتمناها.

وللمرة الأولى تفقد مبروكة ثقتها بنفسها وقالت: فين الحلاوة يا أمي.. خلاص أنا كبرت فى السن وأصبحت بنت فوق العشرين.. وكررت والدموع الغزيرة تملأ عينيها عارفه إيه فوق العشرين يعنى! ولسه فى بيت أبويا.

فى هذه اللحظة دخل والدها وسمع عن بعد كلمات من الحوار الدائر بينهما وبصوت أجش قال إنتو فين؟ وقالها بشكل مقصود حتى يلفت نظرهما إلى وجوده، وينهى الحوار بعد أن استشعر للمرة الأولى أن ابنته التى يتباهى بها ويحبها مجروحة من الداخل، وبدأت ثقتها فى نفسها تتأثر وتتحدث للمرة الأولى عن شبح العنوسة، والخوف من مرور قطار الزواج السريع دون أن يتوقف فى محطاتها.. وجال بخاطره شقاوتها وهى طفلة وطلباتها المتكررة منه بأن تمتطى يوم زفافها حصانا، وقبل أن يستغرق فى التفكير وجد نفسه فى مواجهتهما.. وساد الصمت بين الجميع.

كان أكثر الناس سعادة فى القرية بل فى العالم كله بزواج السومعى أم السيد، فلم يعد هناك منافس قوى لابنها واعتقدت أن مبروكة هى الآن أقرب ما تكون لابنها من أى وقت آخر، وانتهزت الفرصة وفاتحت السيد فى الأمر، ولكنه قال لها بحزم بلاش مبروكة يا أمى!

ذهلت الأم من رد ابنها وتخيلت أنه يمزح أو يريد أن يختبر مدى تمسكها بها له، ولكنه كان فى هذه اللحظة جادا فى رأيه بل ومصرأ عليه.

وعبثا حاولت الأم مناقشته فى الموضوع لمعرفة التحول الغريب فى موقفه، ولماذا صرف النظر عن مبروكة؟ كل ما قاله أن أهلها لم يرحبوا به منذ البداية وأنه انتظر أكثر من اللازم وكرامته تجبره على صرف النظر واختيار زوجة جديدة أخرى.

لم تقنع الأم هذه الإجابة وبحثت عن السبب الحقيقى ولكن لم تعثر عليه، كان السيد قد مل الانتظار وكره تردد أهلها وبدأ يتخلى تدريجيا عن ارتباطه الكبير بها واتخذ القرار وناقش فيه الأستاذ عبد اللاه، وشجعه عليه بل ورشح له فتاة أخرى للزواج واكتشف السيد أنه مرتاح إلى مثل هذا القرار، ولم تعد سطوة مبروكة عليه كما هى.

ما الذى تغير فيه؟ لا أحد يدرى.

عاد قبيصى إلى القرية فى إجازة كانت معنوياته هذه المرة مرتفعة جدا، الابتسامة لا تفارق وجهه وبدأ ينسى أو يتناسى

الهزيمة والذكريات المريرة التي علقت بذاكرته بسبب ما حدث له
ولمصر فى عام ٦٧.

مرت ثلاث سنوات على هزيمة يونيو ورغم أنها ليست فترة
كافية للشفاء من جرح غائر بحجم الهزيمة، ولكن الزمن كان
كفيلاً.

بدأ يحكى عن روح جديدة دبت فى القوات المسلحة ورغبة
قوية فى الانتقام من العدو بجانب إصرار حقيقي فى استعادة
الثقة وفى تحقيق النصر.. مشاعر حركتها مرارة وجبروت ما
حدث.. هذه التغيرات الجوهرية، جعلته يشعر بالفارق بين ما كان
وبين ما يحدث الآن.

الاهتمام على أعلى مستوى بالجنود وبالأسلحة وبالخطط
وبالعمل فى صمت.. التدريبات تجرى على قدم وساق هكذا يقول..
كانت أقصى أحلام قببصى أن يشاهده مرة واحدة قائد
اللواء الذى تتفرع منه كتيبته، يشاهده وهو يتدرب على تدمير
الأهداف العسكرية الحية، وهو يمارس هوايته المفضلة فى
اصطياد هياكل الدبابات، أما الآن فقد شاهده رئيس أركان
الجيش المصري وهو يقف خلف المدفع بل وحضر المناورة
بالكامل وتناول معه ومع جميع أفراد الكتيبة وجبة طعام الغداء.

منحه رئيس الأركان ترقية استثنائية: شريط جديد، ضاعف
ثلاث مرات من عدد الأشرطة التى كانت تزين كتفه، عندما نجح
فى إصابة الهدف المتحرك باقتدار.

كان قببصى موفقا إلى أبعد حد فى تدمير هدف متحرك على شكل دبابة، محاولته الناجحة أعقبت كثيرا من المحاولات الفاشلة التى عجز فيها زملاؤه الجنود عن إصابة الهدف، كان يوما صعبا على الكتيبة وعلى جنودها وضباطها وقائدها..

رئيس الأركان بشحمه ولحمه يشاهد التدريبات ويشرف على المناورة، ولا أحد من الجنود يفلح فى إصابة الهدف المتحرك.. الكل أخفق دون سبب واضح ما الذى حدث؟ بكل المقاييس مصيبة، ولطمة قاسية. بالأمس معظم الجنود نجحوا فى المهمة واليوم وأمام الرجل الثانى فى الجيش الجميع يفشل وبهذه السهولة.

وجاء الدور على قببصى.. كان يراقب بخوف شديد إخفاق زملائه، وبينه وبين نفسه يتساءل لماذا لم يفلح أي منهم حتى الآن؟ وهم الأقدر منه بدليل أنهم سبقوه فى التدريب وفى المحاولة.

وعندما حان دوره زادت ضربات قلبه، وشعر بحرارة كبيرة تسرى فى جسده وتلاشت تماما الصورة من أمامه، وكأنه فقد فى التوبصره وأصابه العمى.. وبسرعة نظر نظرة خاطفة على عداد سرعة المدفع وإلى الساعة التى تحدد سرعة الدانة، واكتشف الخطأ وهو أن الكل ضبط سرعة الطلقة على سرعة الدبابة الحقيقية التى تسير بسرعة ستين كيلو مترا فى الساعة.. فى حين لاتزيد سرعة الهدف التمثيلى على خمسة عشر كيلو

مترا فى الساعة، ولهذا كانت تخرج الطلقات سريعة جدا وتسقط
فى نقطة بعيدة عن الدبابة.

وبعد أن فطن إلى هذه النقطة وضبط الميقات خرجت أول
طلقة من مدفعه لتقسم الدبابة نصفين، وتشعل فيها النيران وسط
فرحة غامرة وسعادة كبيرة وعدم توقع من الجميع .. ومن شدة
الفرح لم يتمالك (الصول) شوقي معلمه فى الوحدة نفسه، وطار
فى الهواء طربا وسط ذهول الجميع ونسى نفسه تماما من شدة
الفرح، حيث كانت فرحته بإتقان تلميذه أكبر من كل شىء، وعلى
الفور وقف رئيس الأركان وطلب من قائد الكتيبة إحضار
قبيصى، سلم عليه وشد على ساعده، ومنحه رتبة أعلى مكافأة له
على تميزه وإجازة استثنائية لبضعة أيام يقضيها مع الأهل.

.....

خلع ملابس الميرى بعد وصوله القرية كان منتشيا وسعيدا
بالترقية والإجازة والأهم مصافحة رئيس الأركان ونجاحه فى
إصابة الهدف.

وبعد تناول وجبة العشاء الدسمة، والتي أعدتها له شقيقته
والتهم قطع اللحم الضانى بشهية مفتوحة.. كما التهم طاجن
المرقة الذى يحبه حتى الحبة الباقية لم يتركها بل رفع الطاجن
بين يديه ووضع فى فمه وشرب الباقي، وبعد أن فرغ من ذلك
ناولته كوبا من الشاي الثقيل وحبس بسيجارة بلمونت .

شقيقته أخبرته بضرورة زيارة أم إسماعيل لمواساتها في واقعة تغيب ابنها عن الامتحان. قصت عليه الحكاية من (طقطق حتى سلامو عليكم).. استمع للحكاية وكله تأثر وغيظ وغضب، غضبا شديدا من تصرف الولد إسماعيل، من داخله كان لا يرتاح إلى تصرفاته السابقة.. وود لو كان الأمر بيده و ضربه علقة ساخنة على كل ما كان يفعله، ولكنه كان يخشى من غضب أمه.

تردد قليلا قبل القيام بالزيارة، وبعد أن تشاور في الأمر مع شقيقته وعرف أن الأم تكاد تعيش في عزلة عن العالم (القرية) منذ صباح هذا اليوم المشنوم الذي حطم فيه ابنها قلبها.

ذهب إلى أم إسماعيل متكاسلا وغير سعيد، مزاجه تغير وتحول من شخص سعيد إلى إنسان ضيق الصدر.. مهموم ساخط على سلوك شباب القرية الذي لا يتحمل المسؤولية ولم يمر بيوم واحد من الأيام السوداء التي مربها في الجيش.. وفور رؤيته لأم إسماعيل قال: لها أوعى تكوني لسه زعلانه على موضوع عدم ذهاب إسماعيل إلى الامتحان..

أنا سمعت بكل اللي حصل ولو كنت موجودا، لضربته على وجهه وأرغمته على الذهاب إلى المدرسة.

يا ابني حتى لو كنا ضربناه وأجبرناه على الذهاب إلى لجنة الامتحان كان ها يروح ومش ها يروح.

إزاي الكلام ده؟

كان زى ما قال لى الأستاذ عبد اللاه هايتك ورقة الامتحان
بيضا زى اللبن، من غير من يخط فيها حرف واحد يوحد ربه.. ويا
قبيصى: الموضوع ده خلص وأنا نسيتة.

قبيصى: عموما أنا ليه كلام معاه هو فين؟

كل يوم داير على حل شعره.. يادوب يرجع وش الفجر.

بيروح فين؟

يلعب على القهوة لعبة الضمنة الله يقطعها.

والسنة الجاية ناوى هو على إيه؟

لا الجاية ولا اللى فاتت هو خلاص بطل من المدرسة.

كانت مثل النخلة التى تم تقليمها للتو، وتبدو مرتفعة وسامقة
ولكنها بلا ظلال تقى من شمس الظهيرة.. تتحدث بصوت عال
دون حماس.. تضحك دون أن تسمع الصوت الحقيقى للضحك..
تبكى دون أن تتساقط من عينيها الدموع.. كل شىء فيها يوحى
بالانكسار والحزن والحسرة وضياع الأمل الأخير. وعندما تبين
قبيصى ذلك قال لها: البركة فى عبد الستار ابنك الصغير إن شاء
الله سيكون علامة كبير ويخل الجامعة.

صمتت أم إسماعيل ولم تتفوه بكلمة واحدة.. وحتى ينهى
قبيصى الموضوع وينصرف بعدما شعر بالأسى لحالها قال:
لازم إسماعيل يدخل الجيش علشان يتعلم الأدب على حق ويعرف
النظام.. ويكتشف أنه غلط غلطة عمره كله والندم لن ينفعه.

الأم: هو يا قبيصى رغم كسرة قلبي برضه حتى الآن عيل مش
واعي، ولا عارف لكنه وارث عن أبوه العند والصلف والدماغ
الناشفة..

لا يأثم إسماعيل عمى غير كده خالص وطول عمره راجل طيب
وبعيد عن المشكلات.

يا قبيصى: أنا عارفه عمك وعارفة صفاته.

طيب أستاذن أنا و أشوف وشك بخير.

قبل سفرك فوت سلم على.

حاضر. حاضر.

خرج قبيصى، وبعد خروجه، وجد الشلة تتسامر وتفوح من
جلستها رائحة الحشيش، وبجدية حياهم، وأسرع الخطوات كما
لو كان يود أن يبتعد سريعا عن المكان، دون أن يكثر بدعوتهم
له بالجلوس ومسامرتهم، وبعد أن ابتعد عنهم بصق على الأرض
بصوت مسموع. وواصل سيره حتى منطقة اللبخة فوجد هناك
الحاج هارون لا يزال ساهرا وحوله عدد كبير من الحضور، وبعد
السلام.

سأله الحاج إيه الأخبار فى الجبهة يا وحش؟

فقال قبيصى الحمد لله الأمور تغيرت خالص يا حاج،
وناويين على الانتقام من العدو والتدريبات كلها جدية وانضباط،
والقيادات الجديدة مختلفة تماما وإحساسها الوطنى كبير.

ودون مقدمات قال إبراهيم أحمد يعنى إيه إحساسهم الوطنى
كبير؟

فرد عليه السيد الغس قائلا: يعنى حاسين بالبلد و المسئولية
الكبيرة التى تقع على عاتق القوات المسلحة، ومختلفين عن
الجماعة بتوع هزيمة يونيو.

فرد إبراهيم أحمد: الكلام ده غير صحيح وأنا لا أحب
الشماتة فى خلق الله يا سيد.. ولازم تبطل الطبع ده يا أخى.. هو
أنت الوحيد الذى دخل المدرسة فى البر كله. من يوم الهزيمة
وأنت على طول مستحرم فى الكلام على جمال والرجالة بتوع
الثورة.. أنت ناسى أن فى اليوم الأول للحرب أسقطنا للعدو
عشرات الطائرات وقتلنا مئات الإسرائيليين ولا ناسى. وصمت
ولأن الكلام كان غريبا لم يرد السيد بشىء وسكت هو الآخر.

كانت المعلومات لدى البسطاء عن هزيمة يونية مصدرها
الإذاعة والبيانات العسكرية التى كانت تصدر، والناس لا تتابع
غير ذلك ورغم انتهاء الحرب فإن البعض كان يعتقد فى صحة ما
سمع أو بالأحرى لا يريد تصديق أى شىء آخر، حتى لو كانت
الحقيقة بعينها ومن هؤلاء الناس إبراهيم أحمد، ومهما حاولت معه
ومن فرط حبه لعبد الناصر لا يريد تصديق أى شىء عن الهزيمة
حالة من الرفض وعدم التصديق لأن الصورة التى يحتفظ بها
هؤلاء البسطاء لجمال عبد الناصر، صورة الرئيس القوى الذى لا
يقهر ولا يهزم وهو فى الوقت نفسه قادر على سحق العدو
والانتقام منه والتخلص من جبروته.

قبيصى كان لا يقصد كل هذا، ولم يعقد المقارنة بين القيادات السابقة وبين القيادات الجديدة، فهو يعرف ويعلم أن عبد الناصر القائد الأعلى للقوات المسلحة باق فى موقعه ولم يتغير، صحيح انتهى عصر المشير عامر، ولكن القوات المسلحة فى أى وقت لم تكن ولن تكون هى المشير أو غيره ولكنه كان يتحدث عن انضباط حقيقى فى الجيش وعن عزيمة قوية يتسلح بها الجميع.

وساد المكان صمت كبير بعد مداخلة السيد الفس وبسرعة عاد الحاج هارون إلى الحديث وقال : لكن ممكن نحارب إسرائيل تانى يا قبيصى؟.

فى هذه اللحظة بالذات شعر وكأنه رئيس أركان الجيش المصري. وقال بعد أن تلقى سيجارة لف من إبراهيم أحمد، كان قد أعدها له من علبته الصفيح، وأحسن حشوها بالدخان وبدأت السيجارة ممثلة، ومهيأة للاشتعال والاحتراق، وبسرعة كبيرة وضع يده فى جيبه وأخرج منها علبة الكبريت والتقط منها ثقابا، ولسوء الحظ كان الثقاب ممثلا بمادة الكبريت بشكل غير طبيعى وعندما مرره على سطح العلبة تطايرت منه شرارة واستقرت على جلباب السيد فتقبطه، وكادت تحرقها واندفع جميع الحاضرين صوب السيد كما لو كانت حريقا كبيرا دب فى محصول القمح، وتم إطفاء الشرارة التى نتج عنها فقط مجرد ثقب صغير فى الجلباب ..

ولأن إبراهيم أحمد لا يسكت فى أى ظرف قال: ربنا خلص
منك سريعا يا سيد.. كل الكلام الذى تقوله على جمال، وفاكر
ربنا ممكن يتركك..

وحتى لا يشتعل الحديث قال قبيصى أنا أسف يا أستاذ
سيد، المرة المقبلة سوف تجدنى متوقفا عن التدخين، من قبل
حاولت أكثر من مرة، ولكننى لم أنجح.

فرد السيد عليه قائلا: كل الذى يريده ربنا كويس، وأكمل
قبيصى مخاطبا الحاج هارون: الحرب لابد منها لكن لا أحد
يمكن أن يتوقع متى تبدأ.. وعموما يا حاج نحن الآن كل يوم فى
حرب معهم، وشط القناة كل ساعة فيه جديد.

السيد الفس: لكن العدو بنى على الشط الشرقى للقناة خط
بارليف الحصين.

كل عقدة ولها حل يا سيد أفندى. ربك قادر على كل شىء
ولابد من الثأر.

الحاج هارون: الله يقطع نفسم من الدنيا.

قبيصى: نحن مصرون يا حاج على الصمود.

صمود إيه يا بنى نحن تعرضنا إلى هزيمة وانكسرنا والحل
الوحيد هو الرد مش الصمود.

السيد الفس: كلامك فى الصميم يا حاج.

قبيصى يا جماعة الأسرار العسكرية ممنوع الكلام عنها،
والعقوبة معروفة محاكمة عسكرية وسجن ويمكن إعدام.

الحاج ياراجل نفسنا نظمئن على بلدنا مالنا نحن ومال
الأسرار العسكرية، كل اللي شاغلنا هو وضع البلد وتأثير
الهزيمة على نفوس الجيش.

ويا قبيصى أنا لم أسأل، والذي تكلم الأستاذ سيد وهو الذى
يتحمل المسؤولية وضحك الجميع من القلب .

.....

عاد قبيصى إلى البيت، وجد شقيقته فى انتظاره لم تنم بعد،
توقع منها أن تسأله عن أخبار أم إسماعيل، وقبل أن تنطق بكلمة
واحدة قال لها: الموضوع ده بالذات بصراحة أنا عاوز أنساه..
الولد ده مش طبيعى وكان لازم يفوق بعلاقة معتبرة، يعنى إيه ما
يروحش الامتحان ويطنش؟.

كانت شقيقته تستمع بضجر منه، لأنها ملت من تكرار سماع
قصة إسماعيل، التي أصبحت مقررا يوميا يتندر به الجميع
ويحفظه.

هي تريد أن تفتاحه فى أمر آخر.. هو عزوفه عن الزواج والسر
وراء انتظاره كل هذه السنوات دون زواج.

ودون مقدمات فتحت الموضوع، ورشحت له مبروكة وقالت
فى مبررات ترشيحها: السومعى تزوج من ابنة عبد الوهاب..
والسيد الفس واضح ما فيش قسمة ونصيب، يعنى إيه اللي
يمنع.. أنت أكثر واحد مناسب لها.. بطل فى الحرب وشجاع

وتغلب ميت راجل، وعلى كتفك ثلاث شرائط بحالهم وشيخ البلد
بيعمل لك حساب.

سمع منها قبيصى كلمة بطل فى الحرب، وكاد يضحك بأعلى
صوته وكما يقول المثل شر البلية ما يضحك. وقال فى سره
وبحسرة كبيرة بطل فى الحرب طب من إمتى؟ وما الحرب التى
تقصدها؟.

كان كلام شقيقته مفاجأة كبيرة له لم يتوقعها.. كيف ترشح
له مبروكة الدلوعة؟ ودارت الخواطر فى رأسه وبسرعة كبيرة
حسم الأمر وقال :أنا لم أقرر الزواج بعد.. واليوم الوحيد الذى
سأتزوج فيه هو يوم العبور والنصر على العدو، وستكون الهدية
الأولى التى سأقدمها لزوجتى هى قطعة حقيقية من حطام إحدى
طائرات العدو التى سأسقطها بمدفعى.

سمعت شقيقته منه هذا الكلام وكلها دهشة من منطقة، وغيظ
أكبر من رده. وقالت له ما هذا الكلام الكبير ده، أنا بكلمك عن
الزواج تقول لى الحرب والعبور والنصر، هو أنت ها تقضى بقية
عمرك فى الجيش ولا إيه؟ شعر قبيصى أن شقيقته لن تفهمه فقال
لها: الصباح رياح وذهب للنوم.. وفى الحقيقة لم يزره النوم هذه
الليلة، شقيقته جددت عليه المواجه، ذكرته بكل الذى مضى.
سمع منها الكلام الذى يوجع ويؤلم قالت له أنت بطل فى الحرب.
وهو فى الحقيقة مجرد جندي تعرض للمذلة والمهانة، وهو يهرب
مع بقية زملائه من مواجهة قوات العدو الإسرائيلى وبعد كل هذا
تعتقد شقيقته بأنه بطل.

كان يعيش قبل الهزيمة بهذا الإحساس.. تنقل بين عدد من المواقع العسكرية، وتدريب جيداً على المدفع الذى يقف خلفه.. وكان قبل الحرب ينتظر اللحظة التى يطلق فيها دانات مدفعه نحو أهداف العدو ويسمع بأذنيه تحية القائد له على دقة نشانه وقدرته على اصطیاد الأهداف كما يصطاد العصافير.. وظل يفكر طوال الليل فى هذه الهموم، ويحاول بكل الوسائل التغلب على الأرق والدخول فى النوم والاستغراق فيه ولكنه فشل. وتسلسل خارج الحجرة التى كان ينام فيها مثلما يفعل اللصوص، ودون أن يحدث صوتاً حتى لا يتسبب الصوت فى أن تستيقظ شقيقته وشرع فى إعداد كوب من الشاي لنفسه.

كان يريد أن يصنع الشاي دون أن تشعر به شقيقته. ولكن لسوء الحظ سقط من يده براد الشاي وهو يضعه فوق نار الوابور، فأحدث صوتاً مدياً استيقظت على أثره شقيقته من النوم وبلهفة كبيرة قالت له: خير يا قبيصى. فرد عليها خير طبعاً أنا كنت ناوى أعمل كوباً من. ولم يكمل، وبسرعة فهمت القصة وتعاملت هى مع الوابور والبراد والشاي والسكر وصنعت له كوباً من الشاي.

وقالت: أكيد كنت بتفكر فى مبروكة.

ودون أن ينطق بكلمة واحدة تركها إلى حجرتها وبينه وبين نفسه قال واضح فيه حد مسلطها عليه الليلة.. مبروكة إيه وزواج إيه. أنا فى موال تانى غير موال الزواج والحريم.

.....

استيقظ الجميع من النوم على صوت مفزع صراخ النساء
وهى تولول.. الحاج هارون توفى..

منذ ساعات كان يجلس تحت اللبخة والناس تلتف حوله، بعد
أن صلى الفجر وعاد إلى بيته طلب من زوجته طعام الإفطار
وبسرعه كبيرة أعدت له وجبة الإفطار من لبن الجاموسة المفضل
لديه، وطبق من البيض الغارق فى السمن البلدى وبشهىة مفتوحة
التهم الطعام كما لو كان لم يأكل من قبل.. وبعدها حبس بكوب
من الشاى السادة، وقال لزوجته سوف أنام يا دوب ساعتين،
وبعد ذلك أذهب إلى الغيط.

ونام الحاج هارون وتركته زوجته نائما مرت الساعتان، دون
أن يستيقظ اعتقدت أنه مرهق بعض الشيء.. وقالت فى: سرها
دعيه ينام أكثر.

ابن شقيقه طرق الباب، وكان يريد به حتى يذهب معا إلى رى
الأرض، وعندما دخلت زوجته ونادت عليه لم يجبها فطلبت من ابن
شقيقته أن يتركه نائما ويتولى هو مهمة رى الأرض، بدلا عنه
ولكنه رفض وكرر عليها أن وجود الحاج مهم جدا، حتى يتجنب
مواجهة عائلة هنداوى التى تتمسك كل مرة بأحقية الرى قبلهم
رغم أن الواقع يقول عكس ذلك.

وأمام إصراره دخلت الزوجة إلى الحجرة ثانية وبصوت أعلى
نادت عليه كى يستيقظ ولكن لا حراك.. فشعرت من داخلها بشىء،
لاتفهمه واندفعت تهز جسده بقوة دون فائدة فأطلقت صرخة
مدوية حضر على إثرها البعيد والقريب.

هرع قبيصى من نومه بعد أن لكمته شقيقته بيدها وقالت له
الخبر المشنوم.

كان كغيره من شباب القرية يحب الحاج هارون، بل كان كل
سكان القرية يحبونه رغم أنهم يخشونه! ولكن دوره فى القرية
وعلاقاته ومعارفه لا تعوض فهو ملم بكل كبيرة وصغيرة فى
القرية والقرى المجاورة يعرف جميع العائلات ومقدار كل عائلة
ومن هو كبير هذه العائلة..

كان يتحرك بسرعة كبيرة لتلبية الدعوات أينما كانت.. ويذهب
سريعا حاشدا الناس معه فى المناسبات سواء كانت داخل
القرية أو خارجها..

وعاشت القرية أياما حقيقة من الحزن على رحيله.. وكان لابد
أن يسافر قبيصى قبل أن يكمل أيام العزاء وعاد إلى وحدته
العسكرية.

وبدأ الحديث عن سيخلف الحاج هارون فى أدواره المهمة
التي كان يقوم بها البعض رشح الحاج كامل رنة والبعض الآخر
رشح الحاج أحمد خليفة لكن الجميع لم يكتشفوا الشخصية
الجديدة التي ستملا فراغ الحاج هارون، كما لم يستقروا على
شخص بعينه وكأن القرية كلها لا يوجد بها من يقوم بهذا الدور،
والغريب أن الجميع بدأ يتحدث عن الراحل بحب كبير، والكل أخذ
يعدد محاسنه. ويجسد ظاهرة الفراغ الكبير التي يخلفها رحيل
البعض كما لو كان الأمر يتعلق بمن سيخلف الزعيم جمال عبد
الناصر فى حكم مصر.

وبينما كان الجميع مشغولين بهذه القصة، سرت فى القرية حكاية غريبة ومثيرة شغلت الناس كل الناس وباتت هى محور حديثهم واهتمامهم.. ونسوا تقريبا فاجعة رحيل الحاج هارون أو بمعنى أصح تناسوها، كعادة أهل القرية فى كل موضوع تكثر الحكايات وتنتشر الشائعات.. والمفارقة أن هذه القصة حدثت بالفعل والجميع تعجب من كون الضحية هو أحمد أفندى، الشخص المتعلم والمثقف، والذي يستشير أهله القرية فى شئونهم وفى مصالحهم.. ويعتبرونه الرجل المثقف بينهم.. فكيف به يقع فريسة لامرأة جاهلة وتجرده من كل تحويشة العمر بل وتهرب بعد أن جردت المنزل من كل الأشياء التى لها قيمة تذكر.. حتى وابور الجاز لم يسلم من يدها وحملته معها وسط بقية المسروقات وتهرب فى جنح الظلام دون أن يشعر بها ودون أن يحتاط منها.

الحكاية بدأت عندما حلت على القرية فى مساء أحد الأيام سيدتان وهما تمتطيان ظهر حمار.. كان هذا المشهد مألوفا فى

القرية.. بين الحين والحين تتردد على القرية أمثال هاتين السيدتين اللاتي يدعين أنهن يقرأن الكف ويعلمن ما الذى تخبئه الأيام .. ويستطعن اكتشاف الكنوز المخبأة تحت الأرض والتي خبأها الأجداد دون أن يطلعوا الأحفاد على مكانها..

كانت المعتقدات كبيرة فى أن أرض القرية خصوصا حجرات الخزين فى البيوت القديمة مليئة بالكنوز المخبأة.. والكل يحلم بأنه حتما سيعثر عليها ويصير فى يوم وليلة من الأغنياء الذين يأكلون اللحم كل خميس، ويستطعمون رغيف الخبز المصنوع من حبوب القمح ويتخلون نهائيا عن البتاو المصنوع من حبوب الذرة الرفيعة التى يتساوون فى تناولها مع الحيوانات.. وكل الذى جرب من قبل وغاص فى أعماق أعماق منزله حفرا وربما لم يعثر على شيء ومع هذا يعيش وفى داخله الإحساس السابق نفسه بان الأرض التى يقيم فوقها ما هى إلا مكان ممتلئ بالكنوز التى لا يعرف سرها سوى القلة.

كان أول بيت تدخله السيدتان هو بيت أحمد أفتدى.. والذى يعمل مدرسا فى مدرسة القرية والجميع يناديه بهذا اللقب بل والجميع يعتبرونه من الشخصيات الموثوق بها فى القرية.

دخلت السيدتان منزله. ومكتتا به ثلاثة أيام كاملة دون أن يعلم بالأمر أحد، وطلبت منه إحداهما إحضار أشياء كثيرة ونادرة واشترطت عليه ضرورة إحضار هذه الطلبات وإلا لن تتمكن من إخراج الكنز..

كانت الطلبات عبارة عن خمسة أعواد من العنبر، وزوج من طائر العصفور الأبيض، ومائة من حب البركة و غراب أسود ذكر فى ذيله خطوط بيضاء واضحة.

فكر أحمد أفندى جليا فى كيفية إحضار هذه الطلبات ومن أين تأتى؟.

كانت المهمة شاقة فمن أين له أن يأتى بزواج من العصافير البيضاء! وإن نجح فى ذلك كيف يحضر غرابا أسود فى ذيله خطوط بيضاء..

تناقش فى الأمر مع زوجته واستعان بالله وخرج هائما على وجهه بحثا عن هذه الأشياء..

فى البداية فكر فى الذهاب إلى شاطئ البحر فى منطقة خضراء جافة تتكاثر فيها الغربان، ولكنه تردد قليلا خشية أن يكتشف البعض سره فحزم أمره وسار إلى أبعد مكان فى القرية، حيث يقيم رجل وزوجته وحيدان ولا يخالطان سكان القرية إلا نادرا وطلب منهما معاونته فى اصطياد العصافير والغربان.

وقص عليهما حكاية غريبة وهى أن ابنه يهاب الناس ولا يقدم على مجالستهم، والشيخ أخبره أن علاجه هو ذبح الغراب والعصافير أمامه ثم وضعها على الأرض ويقوم الابن بالمرور فوقها عدة مرات.. عند هذا الحد ستنتهى مشكلته ولا يهاب أحداً بعد ذلك.. وقال لهم إنه لا يثق فى أحد غيرهما، ولهذا قصدهما

فى المهمة وأخرج من جيبه ورقة فئة الخمسة والعشرين قرشا
ودسها فى يد الرجل الذى حاول الاعتذار ولكن هو أصر.

كان أكبر تحد يواجهه هو كيف يخفى سيدتين عن عيون
الناس وهما داخل بيته والذى تكاد تكون بوابته الرئيسة مفتوحة
طوال ساعات اليوم وحتى قرب منتصف الليل..

ذهب إلى المدرسة وحصل على إجازة لمدة ثلاثة أيام، ولسان
حاله يقول سوف أستقيل نهائيا بعد إخراج الكنز وربما أفتتح
مدرسة خاصة فى المدينة، ولن أعمل بعدها دقيقة واحدة فى
الحكومة التى تمنحى راتبا شهريا لا يزيد على ثلاثين جنيها بعد
كل هذا العمر..

عاش أحلاما عريضة وسبح بتفكيره فى الكنز وفى النقود
الذهبية التى تمتلئ بها الخزائن المخبأة تحت الأرض، وارتبك
قليلا وهو يفكر فى كيفية بيع هذه الكنوز ومن سوف يشتريها منه!
قال أول شئ سافعله بعد إخراج الكنز هو بناء بيت بحديقة
على الطريق، يكون مميزا عن كل بيوت القرية وأشتري سيارة.

كانت السيدتان تمارسان مهمتهما بنشاط داخل المنزل،
بينما يواصل شقيق أحمد أفندي الليل بالنهار فى حفر البئر
العميقة داخل البيت الذى سيتم إخراج الكنز من داخله..
والسيدتان انزويتا فى ركن بعيد وهما تعدان العدة لليلة الكبيرة
التي ستكون فاتحة خير على الجميع.

مر اليوم الأول والثاني وأفلح أحمد أفندي فى إحضار الطالبات.. ولكنه تعثر فى إحضار غراب بالمواصفات المطلوبة وأحضر زوجا من الغربان شديدة السواد، وكان قى قمة الخجل والغضب من عدم توفيقه فى إحضار النوع المطلوب وعندما دخل على السيدتين والارتباك باد على وجهه واليأس يكاد يخنقه لمحت إحداهما حالته بل بالأصح قرأتها وبسرعة قالت له أنت رجل طيب وربنا يحبك.

على الفور دهش هو من هذا الرد وقال لها: لماذا؟

فقالت له: لأن الرؤية الأخيرة طلبت الغربان سوداء وبالتالى تأكدت تماما أن الكنز فى المكان نفسه الذى نحفر فيه وغدا سوف نستخرجه وأردفت قائلة وهل أحضرت النقود والآتاعاب؟

كان قد باع البقرة الوحيدة فى المنزل حتى يدبر لهما مائة جنيه أتعابهما عن الكنز لأنه اشترط عليهما عدم الاقتراب من محتوياته وأن يكتفيا فقط بالتقدير الذى طلباه..

فى بادئ الأمر اعترضتا ولكنهما وافقتا فى النهاية.

وفى منتصف الليلة الثالثة أشعلت السيدتان النيران وفاحت رائحة البخور، وطلبت من أحمد أفندي وعائلته إحضار سكين جديد لذبح الغربان والعصافير وبمهارة فائقة فعلتا ذلك سريعا وقذفت بالغربان الذبيحة فى وجه أحمد أفندي، وعندما تطايرت الدماء فوق وجهه ولطخت ثوبه الأبيض هاج وانفعل عليهما وكاد

يفتك بهما، لو أن صاحبت إحداهما قائلة اجلس سريعا فى مكانك
لا تغضب الأولياء ولا تدع الشيطان يسيطر عليك.. اذهب
واستبدل ثيابك بلون آخر غير الأبيض.. لايجوز لأى إنسان
موجود بيننا أن يرتدى اللباس الأبيض الآن هذا من حق الأولياء
وخدمهم..

وكما لو كان أحمد أفندي يبحث عن أى مبرر لكى يقنع به
نفسه لامتناع ثورته على ما حدث، فأنصرف واستبدل ثوبه
بآخر لونه غامق.

وقدمت إحدى السيدتين لكل الحاضرين المشروب المبارك
حتى يفتح الله على الجميع وتخرج الجواهر من باطن الأرض..
وبعد لحظات غط الجميع فى نوم عميق باستثناء السيدتين..

لم يستيقظ جميع من فى البيت إلا بعد صلاة العصر، وكأن
دهرا من الزمان مر عليهم وعندما أفاقوا من النوم اكتشفوا
المصيبة الكبرى.. السيدتان هربتا دون أن تتركا فى البيت أى
شئ يذكر.

وانخرط الجميع فى نوبة بكاء لم يوقفها سوى سماع صوت
طرقات على الباب من الخارج، ساعتها صمت الجميع بينما هرع
أحمد أفندي وشقيقه خارج باب المنزل بحثا عن السيدتين
الهاربتين.

طار الخبر بسرعة البرق مبروكة ستتزوج ليلة الخميس من
ابن عمها والذي يصغرها بسنوات .. وستسافر معه إلى القاهرة
حيث يقيم.

العريس وصل إلى القرية وظهر فى الصباح وهو مشغول -
كما الأطفال - بالصيد من فوق شط البحيرة كان يسعد كثيرا
كلما غمزت الصنارة وابتلعت السمكة الطعم وأخرج من الماء
سمكة صغيرة.

كان يراقبه من بعيد بعض الرجال وهم يتعجبون من عريس
مبروكة ومن نصيبها ..

طفى خبر زواجها على كل الأخبار .. وتدافعت الفتيات إلى
بيتها لتهنئتها بالزفاف والوقوف على حالتها ..

وكانت شقيقة قبيصى سبابة بالذهاب إلى بيتها، وهناك
وجدت مبروكة فائرة مثل البدر، طويلة القامة، ويتدلى من فوق
رأسها شعرها الأسود الكثيف، وبشرة وجهها بيضاء كما القمر

فى ليلة اكتماله ومالت عليها قائلة: مبروك أنت ألف راجل يتمناك
لكن النصيب غالب.. لم تفهم مبروكة مغزى الكلام ولن تفهم . هى
تريدها لشقيقها قبيصى ولكنها تخشى من رفضها.

وفى المساء اجتمعت الشلة كعادتها كل ليلة وعلى عكس
المتوقع لم تبدأ حديثها بموضوع زواج مبروكة كما لو كان الكل
لا يرغب فى الكلام حول هذا الموضوع . ولكن لم يشأ محمد أبو
خطوة أن يفوت المناسبة ويطرح الموضوع للحديث، وبحرفية
شديدة فى فتح باب المناقشة دون أن يضبطه أحد متلبسا بإثارة
الموضوع قال : عقبال البقية أخيرا ربنا كرم مبروكة بابن الحلال
ونصيبيها جاء لها.. وأنا والله كنت حاسس أن الموضوع برضه
سوف ينتهى عند ابن عمها التلميذ.. ودون أن يشعر عنتر أبو
خصلة قال تلميذ ايه يا محمد دا عريس وراجل والكل بيحسده
على زواجه من البنت الجميلة مبروكة. طب والله العظيم أنا كنت
ناوى أبيع فدان من الأرض وأتقدم لها للزواج. ضحك الجميع
بصوت عال بعد أن سمعوا هذا الكلام.

.....

اختفى أحمد أفندى عن القرية كلها كما لو كان هاجر إلى
مكان بعيد عنها، ولم يعد يخرج من داره ولم يعد يشاهده أحد..
ظن البعض أنه لا يزال يعيش وفى حلقه مرارة ما حدث له
ولأسرته، وينتظر مرور الوقت لكى يعاود من جديد نشاطه ثانية
وحتى ينسى سكان القرية ما حدث له.. وعندما طال اختفاؤه

اعتقد الجميع دون استثناء أنه سافر ليلا إلى الإسكندرية للعمل هناك، خلال أشهر الإجازة الصيفية.. بعدها يعود وقد تغيرت الأمور وعادت الحياة إلى طبيعتها.. لكنه فى حقيقة الأمر لم يبرح مكانه ولم يخرج من داره وظل طوال هذه الأشهر حبيس حجرته، يرفض كل المحاولات التى بذلتها زوجته معه وبمعاونة أمه وكان زاهدا فى كل شئ، وحال الأم يدمى العيون ولوعة الزوجة تفطر القلوب.

تحولت حجرته إلى صومعة بمعنى الكلمة الطعام يدخل إليه وهو جالس منكب فوق الكنبه الموجودة بالحجرة مرة يلتهم الطعام ولا يترك له أثرا ومرة تحمله الزوجة كما احضرته دون أن تقترب يده منه.

أطفاله يدخلون فلا يكلمهم ولا يقوى على النظر إلى وجوههم طويلا حارت الزوجة فى تفسير هذه الظاهرة بالذات..

ما الحاجز الذى ظهر فجأة بينه وبين أولاده وما ذنبهم فيما حدث..

كان رغم حالته ورغم الوضع الجديد الذى استسلم له لا يتوقف عن التفكير فى القبر الذى صنعه بيده.

ربما يكون السبب فى عدم مواجهته لعيون أطفاله أنه يشعر من داخله، أنه أضاع ثروتهم الحقيقية وثروتهم الوهمية.

كان فى أحيان كثيرة يصحو من النوم والسكون يلف القرية كلها، والظلام الدامس يغطى جنبات حجرته ويجلس القرفصاء

ويتخيل أن السيدتين بالفعل عثرتا على الكنز وهربتا به.. وجميع من فى البيت نيام بفعل مادة المخدر التى تعاطوها لحظتها يكاد يفقد عقله ويتخلى عن صوابه، وود لو تمكن من القفز إلى البئر العميقة التى حفرها فى المنزل وسقط فيها وهال الجميع التراب فوق رأسه وانتهى إلى الأبد.

ولكن كان من داخله لايزال عقل المعلم يقظا يقول له استغفر الله وربما أراد الله لك الخير فيما حدث، وعلى هذا المنوال ظلت الأفكار فى رأسه تتصارع والأمواج فى عقله تتلاطم.. هادرة لا تعرف لها شاطنا ولا تمنعها بموانع..

كان أفضل قرار بالفعل اتخذه هو البقاء فى البيت، هو يعلم أنه سيرتكب جريمة حقيقية لو واجهه أحد من أهل القرية بما حدث. لكن كان أكثر ما يحز فى نفس زوجته حال بناته اللاتى بدأن يفقدن الإحساس بالأمان والرغبة فى الضحك وساعت حالتهن كثيرا.

فى صلاة الفجر ظهر أحمد أفندى لم يتعرف إليه أى من المصلين المداومين على أداء الصلاة فى المسجد فجر كل يوم. كان قد ترك لحيته على حالها وبدأت كثيفة وطويلة.. يرتدى الجلباب الأبيض القصير ومن تحته السروال وقبل دقائق من موعد الأذان اقترب من السلم الذى يصعده عليه المؤذن.. كما لو كان يحجب حركة المرور إليه وبالفعل عندما حان وقت الأذان.. بل وقبل الوقت بدقة صعد هو إلى أعلى السلم.. وانتظر فوقه ثم قال: بصوت خشن وجهورى.. الله أكبر، وأكمل بعد ذلك الأذان بطريقة غير مألوفة من قبل بطريقة.. لا تعتمد على الصوت الجميل وإنما على الجدية فى الأداء والصوت المرتفع والرهبة فى مخارج الحروف، ثم بعد ذلك هبط من فوق السلم وصلى ركعتى السنة واقترب ثانية من مقدمة الصف الأول بل من المكان الذى يجلس فيه الإمام ووقف وأقام الصلاة وتقدم الصفوف وصلى الفجر إماما..

كل من حضر للصلاة لم يربط على الإطلاق بين هذا الشيخ الملتحي، وبين أحمد أفندى الذى كان من قبل يرفض رفضا

قاطعا دور الإمام حتى فى المواقف الصعبة، التى يتغيب فيها لظروف طارئة ويخلو المسجد من مصل يتفوق عليه فى الشروط الواجبة لمن يؤم المصلين.. وها هو اليوم فى صورة جديدة ويفعل كل شىء فى الوقت نفسه.

بعد أن فرغ من الصلاة بدأ الناس يصافحونه ولكنه كان جافا غير متجاوب، ذا نظرات حادة كما لو كان غريبا عن الناس وهم عنه غريبا..

وفى أيام قليلة انتشرت اللحية بين عدد كبير من شباب القرية. كان سلوك بخيت هو المفاجأة الحقيقية فهو شاب لم ينل أى حظ من التعليم وأمى بمعنى الكلمة .. فكيف له فى يوم وليلة يصبح داعية ويمفو عن لحيته، ويتركها تطول ويتخلى عن الجلباب العادى ويرتدى الجلباب الأبيض، ويداوم على الصلاة وفى الوقت نفسه يطارد كل من لا يدخل المسجد كما لو كان وصيا على الناس وشيئا فشيئا، زاد عددهم وانتشروا فى القرية كلها يطالبون الناس بما يعتقدون.

وبدأت الصدمات تتوالى.. الشباب الصغير لم يعد يذهب إلى الحقل وإنما يذهب إلى أحمد أفندى، وبخيت لتعلم القرآن وعلوم الحديث.. وذاع صيتهما بعد أن انضم إليهما إسماعيل وترك لحيته وانخرط فى الصلاة والتزم المسجد لا يبارحه إلا نادرا، وفى صلاة الجمعة طلب من أحمد أفندى أن يصعد على المنبر ليخطب الجمعة ولم يعترض على طلبه، ولكن قبل أن يعتلى الدرج

هاج المصلين واعترضوا على صعوده لأنه فى نظرهم يفتقد الأهلية الواجبة حسب كل المذاهب.. وبحركة عنيفة أشاح إسماعيل فى وجه كل من اعترضوا طريقه وصعد بسرعة الصاروخ فوق المنبر وأمر المؤذن بالأذان..

كانت علاقة إسماعيل بالمسجد من قبل غير منتظمة ومرتبطة بصلاة الجمعة فقط، والصلاة فى أيام رمضان لم يعرف أحد عنه أنه حريص على الصلوات الخمس وما بينها ولم يشتهر بأنه حافظ لكتاب الله أو حتى رجل متفقه فى الدين، هو ترك التعليم فى منتصف الصف الثانى الإعدادى، وبعد ذلك ضل الطريق تماما واليوم ودون مقدمات يعتلى المنبر، ويود أن يخطب الجمعة التى كانت يرتجف منها الفاروق عمر بن الخطاب.

.....

لم ينفذ المؤذن أمر إسماعيل ولم يؤذن..

وألقى إسماعيل الأمر ثانية بصوت أمر قائلا: يارجل أذن للصلاة.

وصمت المؤذن..

كان يخشى من حدوث شىء لا يطمناه داخل المسجد.. وكان يخشى من أن تتحول مناسبة صلاة الجمعة المقدسة عند أهالى القرية إلى نزاع لا تحمد عقباه، ولهذا أثر الصمت لعل وعسى أن يحل الموقف.. فى قرارة نفسه يود لو أقام الأذان، وصلى

المصلون الجمعة ومر الموقف بسلام حتى لو كان ضد رغبة الجميع.. ولكنه فى الوقت نفسه يخشى من أن تتم السيطرة بالكامل على المسجد وتنتهى علاقته به ويحتله أحمد أفندى وتابعه إسماعيل.

كيف تصعد إلى المنبر يا إسماعيل؟ هكذا أطلقها إبراهيم أحمد من داخل باحة المسجد بل لم يكتف بذلك وأكمل وهل تتصور أن خطبة الجمعة لعبة؟.

كيف تفعل ذلك والشيخ سعد إمام المسجد بيننا؟.

كان الشيخ سعد رجلا مكفوفاً يؤم المصلين فى المسجد يوم الجمعة فقط، وله عادة معروفة وهى أنه يحضر إلى المسجد قبل موعد الأذان مباشرة.. وهو يمتطى الحمار وأمامه يجرى ابن شقيقه مسعد، له زى مميز حيث يرتدى الجبة والقفطان والطربوش الأحمر..

كان طويل القامة أبيض الوجه يمسك فى يده على الدوام منديلاً أبيض، يجفف به حبات العرق التى تملأ وجهه فى فصل الصيف وفى اليد الأخرى منشأة طالما طالت شعيراتها كل من كان يجلس بالقرب منه..

ومن عاداته وبعد أن يصلى ركعتى تحية المسجد يصعد المنبر مباشرة ويلقى بتحية الإسلام على جموع المصلين قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم يقول: أذن.. وبعد أن يفرغ

المؤذن من مهمته يبدأ فى خطبة الجمعة بمقدمة محفوظة ومكررة
ويسمعوها كل جمعة الخصلين.

الحمد لله رب العالمين ونصلى ونسلم على سيدنا محمدا
أشرف المرسلين النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين..
أما بعد..

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى
يحب لأخيه ما يحب لنفسه) صدق رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

ثم يبدأ فى شرح معنى الحديث ودلالاته وأهميته ويستمر فى
الشرح، وبعد ذلك يستشهد بأية من القرآن تحض على حب الخير
للغير ويفسرهما سريعا وببساطة شديدة ثم يختم الخطبة بالدعاء
الذى لا يتغير وفى كل مرة يردد: اللهم ارحم أمواتنا وأموات
المسلمين.. اللهم اهلك الكفرة والمشركين.. أعداءك أعداء
الدين.. اللهم يتم أطفالهم.. اللهم فرق جمعهم.. اللهم انصرنا
عليهم.. يارحمن.. يا رحيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين.
أمين.

وأقم الصلاة..

.....

انزل يا إسماعيل قالها بلهجة أمرة الأستاذ عبد اللاه الذى حضر متأخرا إلى المسجد وهاله ما حدث.

من الذى سمح لك بأن تصعد المنبر؟ أنت لا يجوز لك الإمامة..

وكما لو كان يلقى عليه أوامر غير قابلة للنقاش مكملا: لاتفعل هذا مرة أخرى.

لم يبد إسماعيل أى رد فعل ولكنه لم يتحرك درجة واحدة من فوق المنبر.

ووسط هذا الجو المشحون وقف أحمد أفندى قائلا: خطبة الجمعة اليوم سوف يلقيها علينا جميعا الشيخ إسماعيل.. بارك الله فيه وفى أمثاله هو من العلماء الموجودين بيننا.. ونحن الجماعة رشحناه اليوم لخطبة الجمعة وموضوعها سيكون عبادة الخالق وطاعته..

فرد عليه الأستاذ عبد اللاه وما الذى يعرفه إسماعيل عن طاعة الخالق؟.

كيف تقول هذا يا أستاذ عبد اللاه؟.

إسماعيل شاب صالح فتح الله عليه بحفظ ما تيسر من كتاب الله وعدد لا بأس به من الأحاديث الصحيحة.. ومستمر فى مواصلة حفظ بقية القرآن.. ويصوم الإثنين والخميس ويصلى جميع الصلوات ويخرج فى سبيل الله.. واليوم تحرمة من مجرد إلقاء خطبة الجمعة.. وتتشد فى رفضك.. الذى هو أداة تفريق لا

طريق جماعة.. ونحن فى رحاب بيت الله.. وبين يديه نبتغى رضا
ونصلى له ومن أجله صلاة الجمعة الجامعة لا صلاة الفرقة
والفراق والجدل.

هون عليك يا أستاذ أحمد أنا لا أقصد فرقة ولا فراق بل أنا -
والعياذ بالله من كلمة أنا - مسعاى دائما نحو الجماعة
والاجتماع.. ولكن أنت تعلم أن من شروط الإمامة كثير من
الصفات التى لا تنطبق واحدة منها على إسماعيل، وهذا ليس ذما
فيه ولكن لا حياء فى الدين.. وشرع الله لا يقبل المجاملة..
والقاعدة فى الدين.

وقبل أن يكمل الجملة رد عليه أحمد أفندى طبعاً يتبعها
استثناء.

الأستاذ عبد اللاه: أنا معك لكن الاستثناء كما تعلم توجبه
ضرورة، ونحن الآن فى موقف لا يستدعى ضرورة من أى نوع
فضلاً عن أن المنبر والمسجد آداب وللخطيب الدائم الاحترام.

.....

تصرف إسماعيل بحكمة ونزل من فوق المنبر، فى خطوات
سريعة وأسرع خارج منطقة المنبر.. ووقف فى باحة المسجد
الخارجية ودلف وراءه أحمد أفندى، ومعه ثلة من الأتباع وبينهم
إسماعيل وبخيت وأقاموا الصلاة ورفضوا أن يصلوا مع بقية
المصلين خلف الإمام أو حتى يستمعوا إلى خطبة الجمعة.

هذا اليوم كان مشهودا فى القرية..

من قبل عاشت القرية لحظات دامية بسبب الخلافات الثأرية، والمشكلات المتكررة بين العائلات، ومع هذا كانت الأمور تمر كما تفرضها الظروف لكن اليوم طرأ شىء جديد وغير متوقع ولم يحسب له أحد حسابا.

وبعد أن فرغ الجميع من صلاة الجمعة، طلب منهم الشيخ عبد اللاه أن ينسوا هذا الموقف ويعتبروه تصرفا غريبا. وأن يمضى كل واحد إلى حال سبيله ولكنه فى الوقت نفسه طلب أن يجتمع كبار القرية فى بيته وأن يخرجوا معه إلى البيت، وأن يحضر الجلسة الشيخ سعد ليناقدشوا الموضوع من جميع زواياه.

حرص أبراهيم أحمد على حضور الاجتماع لا بوصفه واحدا من الكبار ولكن لكونه أكثرهم غيظا من تصرف إسماعيل.. بل لم يكتف بمجرد الحضور وإنما هو الذى افتتح الجلسة وبدأ الحديث وقال: آخر حاجة كنت أتوقعها أن يتصور إسماعيل أنه شيخ وخطيب وهو الولد الساقط فى الإعدادية ثم أردف قائلا : الأكادة أنه لا يعرف حتى الآن قراءة الخطاب الذى يصلنى فى البوستة من ابنى الذى يعمل فى مرسى مطروح كل شهر.. وعندما عرضت عليه الخطاب فى الشهر الماضى لم يفلح فى قراءته وتلعثم كما لو كان سيقراً بالطليانى.

لا تدرى مبروكة إن كانت القاهرة على طبيعتها أم أن مكروها
أصابها.

مدينة مليئة بالمتناقضات الشوارع مزدحمة والمواصلات
يقف على أبوابها أكثر من الذين ينحشرون داخلها.

البيوت فى المناطق الشعبية لافاصل بينها والشوارع مكسدة
بتلال من أكوام الزباله..

ها هى القاهرة التى حلمت بها وجاءت لتستقر فيها هل تكمل
بقية سنوات عمرها فيها؟
هى لا تصدق..

ثارت فى بادئ الأمر على زوجها وطلبت منه ضرورة
الانتقال إلى منطقة أخرى، أكثر احتراماً لأديمتها من المنطقة
التي اختارها ولم تشاهدها من قبل وقارنت بينها وبين المنطقة
التي كانت تزور فيها عمها واكتشفت الفارق..

ولكن الزوج أخبرها أن القاهرة وبعد الهزيمة تعاني معاناة
كبيرة، كل الأموال تذهب إلى المجهود الحربى.. عجلة الإنتاج

توقفت والدعم الخارجى غير موجود والإنتاج من الأساس لا
يكفى والزيادة السكانية كبيرة ونحن فعلنا مثل الملايين التى
لجأت إلى المناطق الشعبية لكى تعيش فيها وتضمن لها مأوى
يكفيها مذلة العراء..

سبحت مبروكة بخيالها.

مصر أم الدنيا وعاصمتها القاهرة التى هى حلم أى إنسان
فى الصعيد.. تضمن على سكانها بحياة كريمة ملمعونة الحرب..
ولمعونة الهزيمة.. ولمعوز من وضعها فى هذا الموقف.

فالهزيمة قسمت وسط مصر.. بددت بهجة عاصمتها وتركت
الهزيمة وراءها تلالا من المصاعب والمتاهات.. وضافت سبل
العيش بالكثيرين من أبناء الأقاليم ونزحوا دون تفكير إلى
العاصمة القاهرة.. منهم من أفلح.. وأصبح من أصحاب
العمارات والثروات ولكن غالبيتهم عاشوا وماتوا على هامش
الحياة.. ماذا لو كانت مصر انتصرت حقا هل كانت ستعاني
مثلما هي تعاني الآن؟.

بالطبع لا فالنصر كان ممكنا.. لو الصراع المرير الذي
عصف بالقيادة ودار بين الرئيس عبد الناصر والمشير، كليهما
أخطأ في حق مصر وكليهما طعن الآخر وطعن الشعب كله.

المشير حول القضية إلى زعامة شخصية وهالة كبيرة دون
أن يتوقف علي حقيقة الجبهة.

والرئيس بكل كبريائه وهالته لم يستطع مواجهة المشير، أو عزله
وكان كمن يضع رأسه في الرمال.. والنتيجة هزيمة نكراء وشعب
يعاني.. وبلد ضاعت موارده.. ودماء سالت دون تضحية حقيقية.

غراميات المشير وولعه بنجحات الفن كانت علي حسابها عليه.

عناد الرئيس وعدم مرونته كان علي حساب وطنه..

وبينما الناس مشغولة بما حدث داخل المسجد عادت مبروكة من القاهرة الحكايات تملأ القرية عن سبب عودتها.

فى البداية راجت قصة أنها جاءت فى زيارة إلى والدها المريض، لكى تطمئن عليه ولكن سرعان ما تبددت خيوط هذه الحكاية بعد أن أيقن الجميع أن والدها لم يلزم فراش المرض منذ عشر سنوات على الأقل... بل وربما لم يعرف المرض أبدا فهو رجل قوى ويتمتع بصحة جيدة ومعتدل فى سلوكياته وفى كل شىء.

فى المساء اجتمعت الشلة كعادتها ولم ينس محمد أبوخطوة أن يفتح الموضوع بطريقة غير المباشرة، والتى توحى لمن يسمعه أنه لم يخطط من قبل لتناول هذا الموضوع وبدأ حديثه قائلاً: اليوم شاهدت سيارة تدخل القرية وفوقها مجموعة من حقائب السفر، وتجلس فى المقعد الخلفى سيدة وعندما تابعت خط سيرها وجدت أنها متجهة نحو منزل الحاج برعى والد مبروكة، وعرفت أنها عادت من القاهرة.. والغريبة أنها غاضبة من التلميذ زوجها.

عنتر أبوخطوة لكن لم يمر على تاريخ زواجها غير سنة.

أبوخطوة: سنة ولا سنتين الجواب بيظهر من عنوانه والزوجة دى غير موفقة من الأول.

ليه؟

لأن مبروكة بنت جميلة ولها شخصية قيادية ومن يومها ولا ألف راجل والعريس مجرد تلميذ صغير لا يستطيع أن يلبي طموحاتها.

كانوا جميعا فى قرارة أنفسهم يرون أن الأنثى بكل ما يميزها
هى بالضبط مبروكة .

أحمد أبو النجا: أنا نفسى أسأل واحد عاقل يقول لى ما السر
فى مبروكة؟ ولماذا نتحدث عنها كما لو كانت أميرة من الأميرات
أو ملكة من الملكات؟

أبوخطوة: وأنت فاكّر إن الأميرات ربنا خلقيم مختلفين عن
غيرهن أبدا، لكن الفرق فى النعمة الكبيرة التى تظهر عليهن وفى
الفلوس المتتلة والعزل لكن والله العظيم لو البنت مبروكة عاشت يوما
من حياة الأميرات للدنيا كلها تتكلم عنها وعن جمالها وحلاوتها .

كانت مبروكة بالفعل قد عادت بعد خلاف عاصف مع زوجها ..
هى سافرت إلى القاهرة بأحلام وردية وحياة جديدها تعيشها
هناك ..

لكن الأحلام غير الواقع والمسافة بينهما كبيرة وممتدة
زوجها لم يدخر جهدا من أجل إرضائها، رغم أنه فى حالات
كثيرة كان يضج منها لكونها أمية وغير متعلمة التعليم الواجب .

وكان فى بعض المواقف يشعر ببعض الحرج من طريقة
كلامها، خصوصا عندما تنطق بحرف الجيم ولا تعطشه فى بعض
الكلمات لأنها تود أن تجارى كلام أهل البندر، فتقع فى المحذور
وتنطق كلمة الجينز (كينز) وغيرها من الكلمات، أو لكونها لا
تعرف كثيرا من أصناف الطعام فى البندر، ولا تعلم عن طهى
الفراخ إلا طريقة السلق والتحمير ولم تسمع من قبل أى شىء عن
البانيه أو الشيش طاووق وماشابه ..

فى كل مرة كان يطمئن نفسه بأن الأيام سوف تعلمها ويربط بينهما وبين والدته التى نزلت مع أبيه، من قبل إلى القاهرة وكانت فى مثل ظروفها ومع مرور الأيام تغيرت، ولم تعد مختلفة فى أى شىء عن أية سيدة من القاهرة.. لكن الصدام الأكبر بينهما نتج بسبب أنها ملئت الإقامة فى حجرة ضيقة بالبيت، وهو لا يعود إلا متأخرا وهى طوال ساعات اليوم جالسة بين الحوائط الأربعة لا تفعل أى شىء ولا تستطيع الخروج أو الدخول، كما أنها لم تكون بعد أية صداقات حتى العلاقة الجديدة التى ربطتها مع جارتها فى الحجرة المقابلة، لم تستمر بعد أن اكتشف زوجها أن الجارة شرهة فى تدخين السجائر، وخشى أن يغير سلوكها من طابع مبروكة ولهذا ضغط عليها لكى توقف هذه العلاقة وتنتهيها تماما وتوصد كل الأبواب فى وجه الجارة.

لم تكن مبروكة تتخيل أنها سوف تعيش فى حجرة صغيرة. كانت متخيلة أنها قادمة من القرية إلى المدينة الأوسع فى كل شىء ستعيش فى بيت كبير يشبه بيت عائلتها فى القرية لكن الفارق سيكون فى أنه أكثر تنظيما ونظافة ويخصها وحدها..

كانت أيضا تنتظر أن تجلس فى البلكونة والناس تغدو ذهابا وإيابا وهى تتطلع إلى وجوههم وخطواتهم، وتتسلى بمتابعة ألوان ملابسهم وحركاتهم لكنها اكتشفت أن المكان محاط من جميع الزوايا بالحوائط الصماء الصلبة التى تعزل الإنسان عن كل شىء.

وخطر فى بالها المقارنة بين هذا المكان والسجن المخيف الذى طالما سمعت عنه وقارنت بينهما ووجدت أن لا فرق بين الاثنين.

باختصار ذهلت من واقعها الجديد وطلبت فى بادىء الأمر التغيير، ولكن الزوج أخبرها أن التغيير صعب جدا، وعليها أن تنتظر إلى حين تحسن الأحوال.

هو يعمل فى شركة بيع المصنوعات.. حاصل على دبلوم ثانوى تجارى نظام السنوات الثلاث و التحق مباشرة بحفنة بائع فى الشركة بعد التخرج بتوصية من مسئول يعرفه والده.. وكان يعمل منذ الصباح وحتى آخر الليل ويسعى جاهدا إلى إرضائها لأنه يشعر بأنها بالفعل مظلومة فى وحدثها التى لا يتحمل ذنبها.. وكما فتح الموضوع مع زميله فى العمل رد عليه الزميل بالقول بلاش دلغ والمفروض تحمد ربنا على النعمة التى هى فيها، فيه ناس غيرها ساكنة فوق السطوح ولا تجد اللقمة.

كلام زميله يملأه غيظا لأنه لا يعرف عمن يتكلم.

فهو يقارن مبروكة بغيرها وهى الفتاة التى كانت ولاتزال مطمح شباب قرية بأكملها..

مبروكة التى كانت تعيش فى بيت فسيح ووسط عزوة كبيرة من الأهل والأصدقاء، وتتعامل على أنها من المحظوظات، هو الآن يقول عنها يجب أن تحمد ربها على ما هى فيه.

مجرد السكن فى حجرة مشتركة نعمة.. التخطيط من أتوبيس إلى آخر نعمة الراتب المعدوم والذى لا يلبي الاحتياجات الضرورية مهما كانت متواضعة نعمة، إنها معذورة فى صجرها، وأنا مسئول عن كل ما يحدث لها.

انتظر يا إبراهيم أحمد من فضلك نحن الآن لا نتحدث عن
إسماعيل ولا يهمنا من قريب، أو بعيد إن كان متمكناً أو غير
متمكن من قراءة الخطاب الشهري الذي يرسله ابنك لك؟.

نحن أمام مصيبة كبرى و خطر حقيقى حل بالقرية وبسكانها
فللمرة الأولى فى تاريخ مسجد القرية الذى يفد إليه الكبير قبل
الصغير يحدث ما حدث اليوم.. كلنا لا نتجرأ على أن نتحدث
داخل المسجد بكلمة واحدة غير الابتهاال والصلاة والدعاء..

مكتوب على حوائطه (الكلام فى المسجد يأكل الحسنات كما
تأكل النار الحطب).

ولكن الذى حدث اليوم هو أننا فتحنا الباب على مصراعيه
للكلام وللنقاش كما لو كنا نجلس فى السوق أو فوق المصطبة.

هون عليك يا أستاذ عبد اللاه الموضوع بسيط وانتهى.

من الذى قال إنه انتهى يا شيخ سعد؟

أحمد أفندى ورفاقه صلوا الجمعة ظهرا ولم ينضموا إلى الجماعة ولم يستمعوا إلى الخطبة والشرر كان يطير من عيونهم ولا أحد يعرف ما يضمرونه لنا وللقرية.

إبراهيم أحمد: يضمروا إيه يا أستاذ أنا والله لـ سمحتوا ليه لذهبت حالا إليهم، وجعلتهم ينسوا اللبن الذي رضعوه من صدور أمهاتهم.. دول مجموعة عيال ونحن لا نخشاهم ومن السهل جدا تأديبهم.

الشيخ سعد كما لو كان يسمع هذا الكلام للمرة الأولى يخطب بعصاه الغليظة فوق الأرض ويقول: أعوذ بالله العظيم من غضب الله.. أهذا حدث بالفعل يا أستاذ عبد اللاه..

وقبل أن يجيب الأستاذ عبد اللاه.

يبادر إبراهيم أحمد بالقول أيوه حصل يا شيخ وهو يضغط على حروف الكلام ضغطا وأنا فى رأى أنك يا مولانا السبب فيما حدث.

كان الشيخ سعد لم يكتشف ما حدث، رغم أنه شديد الفطنة والحساسية رغم كف بصره، ولكن خروج أحمد أفندى وإسماعيل من داخل حجر المسجد إلى الباحة الخارجية لم يمكنه من تتبع ما فعلوه.. ولهذا أصيب بصدمة كبيرة عندما علم بأن هناك بعض المصلين لم يلتزموا بصلاته وخرجوا على الجماعة وبدأ الشيخ سعد يتمتم بكلمات غير مسموعة ويقول : من خرج على الجماعة خرج عن الطاعة..

ولكن أكثر الأمور التى كانت تقلقه هو أن يصل الموضوع برمته إلى مديرية الأوقاف.. وتعلم المديرية بما حدث وتكون النتيجة هى وقفه عن العمل وبالتالي وقف راتبه الذى تعوده كل شهر.

وبعد طول صمت قال الشيخ سعد: بصوت غاضب وصارخ أنا السبب يا إبراهيم وتقولها فى وجهى يا رجل.

حقا نحن فى زمن العجائب.. الأمل يقيم الشيخ الذى يحفظ كتاب الله عن ظهرانيه.. ويحفظ مئات الأحاديث النبوية ما الذى جرى للعالم؟.

أنا لن أنتظر لحظة واحدة فى هذه الجلسة وعموما الحساب بيننا يا أستاذ عبد الله.. بعد هذا العمر الطويل يتهمنى واحد من أهل القرية بأننى سبب فيما يحدث من فتنة ومن شقاق!.

أيوه يا مولانا أنت السبب، وأنت عارف كويس أنا باحترمك وكل الناس فى القرية بتوقرك، وبتحترمك ولكن يوم الجمعة كان من المفروض أن تحضر إلى المسجد مبكرا وبلاش الحضور على آخر لحظة..

ثم إن الخطبة بتاعتك مكررة وكل جمعة زى الجمعة السابقة، والتغيير غير موجود وأنا عندما أسافر مرسى مطروح وأصلى فى سيدى العوام رضى الله عنه الإمام الله يفتح عليه كل جمعة يحكى لنا حكاية جديدة وبيوعظنا تمام.

الشيخ سعد: حكاية جديدة هى الخطبة أصبحت حكايات. قصره أنا قائم!.

الأستاذ عبد الله انتظر يا مولانا لا تتحرك.

إبراهيم ابنك ولازم تفهمه وأنت مولانا والجميع يبحبك
وبيحترمك، ولا يثق فى أحد غيرك وأنا عرفت قبل حضوري
المسجد أن إبراهيم كاد يرتكب جريمة عندما لمح إسماعيل يصعد
المنبر فى غيابك لأنه لا يستطيع مشاهدة أحد غيرك فوق المنبر.

هذه الكلمات أسعدت الشيخ سعد... ولكنه لم يلن حتى لا تسرى
حكاية أنه السبب فى ظهور الدعاه الجدد وحتى لا يتحمل وزرهم.

وقال: الكلام معقول لكن إبراهيم غشيم ولا يعى الحقيقة.

الأستاذ عبد الله : يا مولانا إبراهيم على نياته والموضوع أكبر
من تخيله، نحن الآن أمام وضع غريب عجموعة من الشباب تدعى أنها
الأحق بالدعوة وتريد توجيه الناس حسب معتقداتهم، وأنا اليوم كنت
مستعدا لتقديم حياتى ثمنا لمنع إسماعيل من إلقاء الخطبة وودت أن
يعرف أحمد أفندى أن الطعم الذى قذف به لن يصطاد السمكة.

طعم إيه يا أستاذ.

طعم استغلال إسماعيل المشاغب والمتهور فى إرهاب الناس
وإخضاعهم لمنطقه وتقديمه على أنه شيخ جليل فتح الله عليه،
ويجب أن نستمع إليه ونستمع قبله إلى شيخه الذى هو أحمد
أفندى حتى يستولوا على المسجد بالكامل، ويعد ذلك يسيطرون
على كل شىء ويمنعوننا من سماع الراديو ومن خروج المرأة
ومن إقامة الأفراح ومن كل شىء عادى نمارسه ومن يرفض يكون
مصيره عقابهم.

تم طلاق مبروكة.

الشائعات كانت حقيقية والخلاف وصل بين الزوجين إلى مداه النهائي.

عاد الزوج من القاهرة من أجل إرضائها والتفاهم معها، وعرض حولا كثيرة آخرها أنه موافق على بقائها في القرية ولن يجبرها ثانية على الإقامة في القاهرة التي ملتها واكتشفت أنها عقوبة وليست سكنا، على أن يذهب هو إلى القاهرة ويزورها كل شهر أو شهرين ولكنها كانت كارهة..

رفضت كل الحلول وللمرة الأولى تقول في وجود والدها وبالفهم المليان أنا أريد الطلاق، ولن أستمرو لو حدث وتم إكراهي لأشعلت في جسدي النيران..

ظن والدها أنها تتدلل ولكنه لم يفطن إلى أنها فقدت أي رغبة في الاستمرار في الزواج وفي العودة إلى القاهرة هو للأسف اكتشفت الوجه القاسي للعاصمة الوجه الجاف عاشرت

المعدومين والبائسين.. عانت من مشكلة انقطاع المياه ومن
أزمات السكر والعيش ومن الزحام فى وسائل النقل..

لم تسعفها الظروف لترى القصور فى حى جاردن سيتى، أو
لم يكتب لها أن تمر أمام العمارات الشاهقة فى حى الزمالك.. لم
تأكل فى مطاعم الكباب والكفتة الشهيرة ولم تذهب إلى السينما.

كانت حياتها عبارة عن علبة تقيم فيها تصحو وتنام فى
المكان نفسه.. ملعونة هذه الحياة ولا يستحق هذا الزوج أن أفنى
حياتى معه.. طموحه محدود ومستقبله من اليوم معروف أقصاها
رئيس قسم مبيعات فى الشركة . فلماذا أضيع شبابى معه؟

انفردت بها أمها وأخبرتها أن البنت تصبح معيبة لو تطلقت،
فكيف يكون الحال بعد مرور سنة واحدة على زواجك؟ ثم قالت
لها بصوت واهن وكمان الخطاب كلهم تزوجوا..

هذه الكلمة بالذات جعلت مبروكة تصر على الانفصال غاظتها
جدا.. ولم تنطق بكلمة واحدة وتركت أمها وذهبت بعيدا فى مكان
منزوا بالبيت ودارت بها الهواجس..

أنا تقول لى الخطاب تزوجوا.. أصبحت غير مرغوبة ومن قال
لها إننى أفكر ثانية فى الزواج تجربتى، لا تشجع ولو مر بها أحد
غيرى لكان ارتكب جريمة ولم يطلب الطلاق فقط.

لم تكن مبروكة تدرك حقيقة السبب الرئيسى فى الأزمة التى
تمر بها هى فقدت الإحساس بكل شىء جميل.

القاهرة الساحرة التى طالما حلمت بها والتى كانت محسودة
من البنات، بسبب أنها ستعيش فيها أصبحت مدينة لا تطيقها
ولا ترغب لحظة واحدة فى العيش بها.

هى بكل أسف عاشت الوجه الآخر للقاهرة خالطت سكان
الحجرات الضيقة والبيئات الشعبية التى لا تفرق بين الفضيلة
وغيرها.

كانت تشاهد جارتها وهى تستقبل فى حجرتها طالبا يدرس
فى الجامعة، وتمارس معه حياة الأزواج فى غياب زوجها أثناء
ذهابه إلى العمل..

فى البداية أوصدت مبروكة باب حجرتها وظلت طوال اليوم لا
تطبق الكلام مع أحد ولا تريد أن يكلمها أحد..

ولكن فى اليوم هالها أن تطرق باب حجرتها هذه الجارة،
وتقول لها لماذا لا تخرجين من حجرتك؟.

لم تجد مبروكة كلمة مناسبة ترد بها على هذه السيدة التى
غاصت فى الوحل، وحتى تتجنبها قالت لها زوجى اشترط على
عدم الحديث مع أى من سكان الشقة .

فردت عليها الجارة: شرط فى عينه هم ناويين يحبسونا عن
الدنيا.

أنا عايشة حياتى وسعيدة ولى صاحب كله شباب ونشاط..

هنا فى هذه اللحظة عادت مبروكة لطبيعتها، ودون تفكير أو تردد صفعت السيدة على وجهها بطريقة مفاجئة، جعلت الشرر يتطاير من عينيها ثم قامت وفتحت باب الحجرة ودون كلام جذبتها إلى الخارج وأغلقت خلفها الباب وانهمرت فى نوبة بكاء متواصل.

مبروكة تربت فى الريف على الفضيلة وعلى الكرامة، والآن هى تحبك بواقع لا تتمناه.. هى تخالط سيدات ساقطات لا يحترمن شرف أزواجهن..

زوج هذه السيدة يخرج كل صباح فى السابعة ولا يعود قبل السادسة مساء.

وكل أول شهر يحضر راتبه ويعطيه إلى زوجته فلماذا تتورط فى علاقة أئمة مع طالب جامعى؟ وتمارس معه الرذيلة وهى بذلك تحطم مستقبل الشاب غير المسئول وفى الوقت نفسه تدنس شرف زوجها..

لم تكن هذه هى الحالة الوحيدة التى تعرفت إليها مبروكة، هناك حالة فتاة أخرى لم تتزوج ومصابة بحالة من حالات عدم الإدراك الكامل، تبدو فى بعض الأوقات تبدو طبيعية بدرجة مائة فى المائة.. وفى أحيان أخرى تخرج من البيت وتغيب ساعتين ثم تعود دون أن يسألها أحد عن أى شئ.

هذه الفتاة أوقعت فى شباكها طالبا آخر كان يسكن فوق السلطوح.. وكانت تذهب إليه وتمارس معه الجنس.. كانت تطلب

منه أن ينام معها فوق الحصيرة البالية المفروشة على أرض
الحجرة، ويترك السرير الذي جرباه من قبل وكاد يفضحهما من
شدة الصوت الذي يصدر عنه وكأنه هزاز قوي لا يتوقف، وكانت
تخشى أن يسمع صنيعهما أحد. وفي كل مرة كانت تخرج
وركباها أصابتها الجروح من الحصيرة، ومن شدة الفسوة التي
كانت عليها وتجعلها لا تفكر في أن الدماء تنزف من ركبتيها
بسبب احتكاكهما بالحصيرة الخشنة. هذه مجرد نماذج مفرزة
شاهدتها مبروكة، وجعلتها لا تطيق العيش في القاهرة ولا تود
حتى مجرد سماع أى شئ عنها. ولكنها دوما كانت مشغولة
وتقول: ما الذى تغير في هذه المدينة؟.

كانت تقضي ساعات ممتدة وهي تبكي حال جارتها المنطوية
علي نفسها التي فقدت زوجها في الحرب، وتحمل هي الآن
مستولية ثلاثة أطفال دون مورد رزق دائم، كان الزوج من
المفترض أن يخرج من الجيش قبل الهزيمة بشهور ولكن بعد أن
تصاعدت حدة الخلافات تم وقف تسريح الجنود وبدأت الحرب
واستشهد مع مئات الشهداء وفقدت عائلته عائلها وسندها، ولا
أحد يسأل عنها ولا يعرف طريقها.

.....

سعي والدها يستنجد بالأستاذ عبد اللاه لكي يقنعها بالعدول
عن رأيها.

في البداية أعتذر الأستاذ عبد اللاه عن المهمة.. خصوصا أن
الشائعات عبأت القرية بكاملها وتطايرت حكايات مثيرة وغريبة، لا

أحد يعرف مصدرها، كما لا يستطيع أحد أن يجاهر بها إلا في نطاق محدود، وبدت الشائعات قاسية عليها فهناك من ادعى أنها عادت من القاهرة بعد أن تورطت في علاقة أثمة مع زميل لزوجها في العمل، كان يتردد عليهما في السكن وتوطدت العلاقة فيما بينه وبين مبروكة حتي تجاوزت كل الحدود، وفي يوم عاد الزوج من العمل في غير مواعده فوجد زميله في الحجرة يجلس مسترخيا فصفعه على وجهه، وقبل أن يطعنه بالسكين تمكن الرجل من الفرار وترك مبروكة تدافع عن نفسها وعنه.. واستسلم البعض لسماع هذه الحكاية بل زاد على ذلك أنهم بدأوا في توجيه الأسئلة الفضولية عن هذا الخائن ومن أين أتى وما بلدته!!

ولم تكن هذه الحكاية هي الوحيدة حيث ترددت حكاية أخرى وهي أنها اكتشفت عجز الزوج عن القيام بمسئوليته وصعقت عندما نام بجوارها ليلة الزفاف، دون أن يقترب منها أو حتى دون أن يلمس جسدها الناعم، ويعبث بصدرها الغض أو يفعل أي شيء، ليلتها اعتقدت أنه مرهق وفي الصباح سيعوض ما فات.

لكن مر الصباح والمساء وهو لا يشعرها بأي شيء، ولا يبدي نحوها أية شهوة، وعندما صرخت فيه لأنه ينام كثيرا ويخرج سريعا بعد أن يصحو، أحنى رأسه وفرت دمعة من عينيه، وارتدى في حضنها: وقال لها أنا مش طبيعي. لحظتها لم تفهم مقصد كلامه ولم تفسر عبارته علي معناه.. لكنه كان يقصد كل كلمة وهو اختار أخف الكلمات لكي يبلغها رسالته بأنه لن يقطف منها أي

شئ، ولن تكون في يوم من الأيام في وضع الغرام معه لأنه لا يملك ما يعطيه لها.

وزاد البعض على ذلك بأنه كان يعلم قبل زواجه بحقيقة وضعه، وأن الأطباء أطلعوه على حقيقته.. ولكن رغبة والده في أن يحتفظ بالإرث وألا يذهب الميراث لغريب أعمت عينيه ووضعت الابن في هذا الموقف والمسكينة في هذا المأزق..

ولم تتوقف الحكايات عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك كثيرا ونسجت كل القصص الدرامية، حول الموضوع والضحية في النهاية كانت مبروكة المسكينة ومن قبلها الزوج الغائب.

كانت هذه الشائعات وغيرها قد وصلت إلى مسامع الأستاذ عبد اللاه ولكنه لم يصدق كلمة واحدة منها بل كاد يبصق على وجه راويها وطرده من المجلس بل وأقسم بأغلظ الأيمان أنه كاذب ومدع. هو يعلم السبب الحقيقي وراء رغبة مبروكة في الانفصال ولكنه لا يعرف كيف يقنع به والدها..

سبب تافه جدا في نظر كل سكان القرية لو أعلنه أمامهم.

لم تكن مبروكة خائنة ولم تضبط في وضع مشين مع زميل زوجها.

هي فتاة شديدة الاعتزاز بنفسها وشرفها، لم تفرط فيه أبدا ولن تفرط فيه مهما تجاسرت عليها الكلاب ومهما طاردها نظرات المتطفلين ومهما حاول معها الطامعون.

من قبل صمدت وظلت مثالا جنيلا للجمال، ونموذجا حرا
ومعنى نبيلًا يتسابق عليه الرجال فهل في لحظة واحدة تضحي
بكل هذا ؟ وتفطر في كرامتها تحت أي سبب.

ربط الأستاذ عبد اللاه بين ما حل بمبروكه وبين النكسة
المدوية التي منيت بها مصر عام ١٩٦٧.

يعرف أنها لاتحدث عن النكسة ولا تحملها أية مسئولية،
ولكن عقلها الباطن رافض للواقع الجديد الذي أفرزته النكسة..
ضد العيش في بيئة منكسرة.. يعترض على الاستمرار وسط
أناس فقدوا روح الحياة.. كاره أن يستمر في دوامة صنعها
العسكريون ورجال الثورة العابثون.

كانت تتمنى أن تنجب ولدا وتسميه جمال أو عبد الحكيم،
ولكنها الآن لا تريد أن تنجب من أصله كرهت الأسماء
والمسميات ونسيت اليوم الذي ولدت فيه.

حسها المرهف لم يساعدها عل الصمود وامتصاص نتائج
نكسة كبيرة لا تتحمل مسئوليتها.

كل هذا دار في عقل الأستاذ عبد اللاه، ولكنه لم ينطق بكلمة
واحدة ولو كان نطق لوصفوه بالمجنون.. فما علاقة مبروكه
بالنكسة والعاصمة والكلام الكبير؟

وبعد فترة من الصمت قال الأستاذ: هيا بنا نستمع إليها..

.....

أنا لم أشاهد منه أي شيء..

هو إنسان طيب وكريم لكن الحياة قسمة ونصيب..

كانت تتحدث ونظراتها في الأرض كما لو كانت تخفي دموعا هادرة على وشك الانفلات. لاحظ ذلك الأستاذ ولكي يمكنها من سكب دموعها دون أن يلحظ أحد طلب منها كوبا من الماء. ومعه كوب شاي وحتى يلف الجوقال لها مداعبا: القاهرة واضح أنها علمتك البخل..

ابتسمت ابتسامة لها معنى وخرجت مسرعة خارج الحجرة. وهي لا تود سماع شيء يفكرها بذكرياتها المريرة في القاهرة.

أخرج من جيبه علبة السجائر وأشعل سيجارة، وسبح بتفكيره فيما جنته مصر من النكسة ومن الهزيمة وقال حتى مبروكة الطيبة المحبوبة أصابها الضرر من الهزيمة ليتهم ما جاءوا ولا حتى حكموا.

عادت مبروكة بعد وقت وقد أفرغت دموعها وغسلت وجهها ووضعت كوب الماء أمامه.. وقبل أن يمر وقت طويل دخل في الموضوع من جديد وعرض عليها حلا مثاليا.

من وجهة نظره أن تؤجل قرارها وتتخلى مؤقتا عن قرار الانفصال، علي أن تبقي في القرية ويعود زوجها إلي عمله وتترك الوقت يحل المشكلة أو لا يحلها.

وبمنتهي الجرأة قالت له وهل يكون الحل لا حل يا أستاذ؟.

صعق من ردها ومن بلاغته .

وقال في سره هذا حال مصر لا حرب ولا سلم، ولا حل من أى نوع ..

وبسرعة تدارك الموقف وأشار إليها، بالعكس هو حل عكس ما تتصورين .. أنت تتكلمين بمنتهى الاحترام عن زوجك فلماذا لا تمنحينه فرصة أخيرة ؟ وتمنحين نفسك أيضا الفرصة؟ .

أية فرصة التي تتحدث عنها .. كل الفرص ضاعت وضاع معها أهم إحساس، وأنا الآن سوف أفرغ للعبادة وللصلاة، ولن أفكر في أى شىء آخر .

.....

عقد أحمد أفندى اجتماعا بعد صلاة الفجر في أرض الملعب الذى نلعب عليه الكرة في حضان الجبل .

حضر اجتماعه عدد كبير من الشباب ومن الأتباع ..

كان منظرهم من على بعد عبارة عن كتلة بشرية بيضاء فالكل يرتدى الملابس، وبدأوا في ممارسة بعض التمرينات الرياضية .

كان أمر هذه المجموعة محيرا حقا، فلماذا هم في عزلة عن الناس و المجتمع؟ ومنذ متى بدأ اهتمامهم بممارسة الرياضة؟ .

كل هذه التساؤلات كانت تدور في عقل الناس وتخشى من تأثيرهم علي أبنائهم .

وفي تطور متلاحق حضر أحمد أفندي صلاة الجمعة وهو يصطحب معه الشيخ سعد.

ظن البعض أنه ذهب للاعتذار إلى الشيخ عما حدث في صلاة الجمعة، لكن للأسف وضحت الرؤية تماما بعد أن اعتلى أحمد أفندي المنبر، وشجعه علي ذلك الشيخ.

فقبل أن يصعد قال له تفضل يا شيخ سعد فما كان من الشيخ إلا أن قال له تفضل أنت يا أحمد أفندي، فتح الله عليك وبالفعل صعد المنبر وبدأ خطبة الجمعة وسط ذهول الكثيرين ووسط فرحة أتباعه وكان موضوع الخطبة هو طاعة أولي الأمر.. بمنتهى الصراحة جاءت الخطبة موفقة تماما وتجلى فيها وبرع في استخدام أسلوب الترغيب والترهيب، وكاد البعض يبكي تأثرا من بلاغة الشيخ الجديد ومن فصاحته وقدرته على التأثير في الناس..

هذا اليوم كسب أحمد أفندي أنصارا جددا حتى الذين كانوا يعارضونه ذهلوا من أسلوبه في الخطابة..

نزل من فوق المنبر وأم المصلين وخرج بعد ذلك الشيخ سعد وحيدا، حيث مكث أحمد أفندي في المسجد بدعوى أنه يفضل أن يبقى يقرأ القرآن حتى صلاة العصر، وخرج الشيخ سعد للمرة الأولى وفي نية الجماعة ألا يعود ثانية حتى لمجرد الصلاة، فهو في نظرهم نمط من المشايخ المستأنسة التي لا تدعو إلى شيء سوى الرضا بالمكتوب والدعاء للحاكم وكفى.

ولكن كيف نجح أحمد أفندي في إقناع الشيخ سعد حتى يتركه يخطب الجمعة ويؤم المصلين..

هو فعل حيلة مأكرة حيث ذهب إليه في البيت ودعاه إلى منزله لقراءة القرآن على روح والده، وجهز له وجبة عامرة بالمرقة واللحم الضاني والفطير الأبيض، وهى الوجبة المحببة لقلب الشيخ وبينما هو منهمك في التهام الطعام مال عليه بكل لطف وقال له أريد أن أصحح خطأ الجمعة الماضية.

فرد عليه الشيخ لاتذكرنى بما حدث وإلا غادرت البيت فوراً.. فاجابه ولهذا أنا سوف أخطب الجمعة المقبلة، حتى أثبت للناس أن الخلاف بيننا غير موجود ولا يصح إلا الصحيح وما كان مناسبا أن يتجراً إسماعيل غير المتعلم على صعود المنبر وأن هذه المهمة هى مهمة المتعلمين فقط وفى مقدمتهم الشيخ الجليل سعد.

أبدى الشيخ سعد اعتذاره وقال لا لن نكرر الخطأ مرتين، ولن أترك الخطبة لغيرى بعد ما حدث.. فناولته قطعة كبيرة من اللحم وقال له من الصالح أن أخطب الجمعة المقبلة أولاً لكى نثبت أنه لا يوجد خلاف، وهى رسالة مهمة نرسلها إلى كل من يريد أن يصطاد فى الماء العكر.. وثانياً حتى تصل الرسالة إلى الأوقاف بأن الشيخ يحتضن الجميع.

واقتنع الشيخ واستولت الجماعة بالكامل علي المسجد، وبدأت منذ ذلك التاريخ توزع أيام الجمع على أعضائها. والتزم الشيخ كمدا بيته وفقد السيطرة تماما على الموقف.

أبرقت شقيقة قبيصى برقية عاجلة لشقيقها عبارة عن تلغراف حمل ثلاث كلمات.. والدك في حالة الخطر..

على وجه السرعة عاد قبيصى وكله فزع من المصير الذي ينتظر والده، لحسن الحظ جاء موعد وصوله إلى القرية في الثالثة فجرا حيث استقل قطار الثالثة ظهرا من محطة مصر، وكعادة هذا القطار يتوقف في كل محطة كبرت أم صغرت لدرجة أن الناس تنتنر عليه وتقول لو اعترض طريقه بائع جرجير لوقف حتى يشتري منه..

طرق بعنف على الباب الخشبي دون أن يسمعه أحد، وذهل من حالة الصمت الكبيرة التي بدا عليها البيت وربط بينها وبين مكروه أصاب والده فهو اعتاد أن يفتح له الباب بعد أول طريقة مهما كان مستغرقا في النوم.. وبينما هو مهموم في التفكير فتحت له شقيقته الباب وبلهفة شديدة سألتها أين الحاج كان ينادى والده بكلمة الحاج فقالت له بخير لا تقلق.

فكر عليها السؤال أين هو؟.

فردت ذهب لكى يروى الأرض في الناحية البحرية.

ومتى تعافى؟

فردت أنا أرسلت البرقية وتعللت بمرض الحاج حتى تحضر
فسألها وكله غيظ وما الضرورة التي جعلتك تخترعين هذه
الحيلة وتلعبين بأعصابى إلى هذه الدرجة .

فقالته وهى مبتسمة: مبروكة!

صعق من الإجابة وقال مبروكة ماذا تقصدين؟

أقصد أن الفرصة عادت من جديد وتم طلاقها من ابن عمها،
ويجب أن تتقدم للزواج منها فهى لا تصلح إلا لك أنت الجندى
الذى يحارب.

في هذه اللحظة شعر قبيصى بأن الأرض دارت به، وكاد
يسقط مغشيا عليه ولولا أنه يحب شقيقته ويعلم أنها تحبه وتفعل
كل هذا من أجله لصفعها على وجهها وقذف بها على الأرض..

كيف ترسل برقية كاذبة وتضعه فى موقف المخادع، وماذا
لو تم كشف أمره؟ ويمنتهى البرود قال لها هذا الموضوع لن
أسمع لك أن تتحدثى عنه مرة أخرى هذه آخر مرة.

ولكنها فاجأته قائلة فى الصباح سوف أرى ما، وأفاتها فى
الأمر وبإذن الله مبروكة لك وأنت لها.



ماهر مقلد من مواليد
محافظة سوهاج مركز جهينة،
ولد عام ١٩٦٢ فى نجع وحشى،

ودرس فى مدرسة جهينة الشرقية الابتدائية
والإعدادية ثم حصل على الشهادة الثانوية
من مدرسة صقر الثانوية، والتحق بكلية
الآداب سوهاج قسم الصحافة، وتخرج فيها
عام ١٩٨٤.

وبعد تخرجه عمل صحفيا بمؤسسة
الأهرام، والآن يعمل مديراً لمكتب الأهرام فى
لبنان، شغل من قبل مناصب عدة فى الأهرام
منها رئيس القسم السياسى فى مجلة
الأهرام العربى، وعضو مجلس تحرير
المجلة، ثم عضو مجلس تحرير الطبعة
العربية للأهرام، وللكتاب كتاب صدر عام
٢٠٠٥ عنوانه «ناريما الملكة الأخيرة».

البريد الإلكتروني للمؤلف:
mhrmaklad@yahoo.co